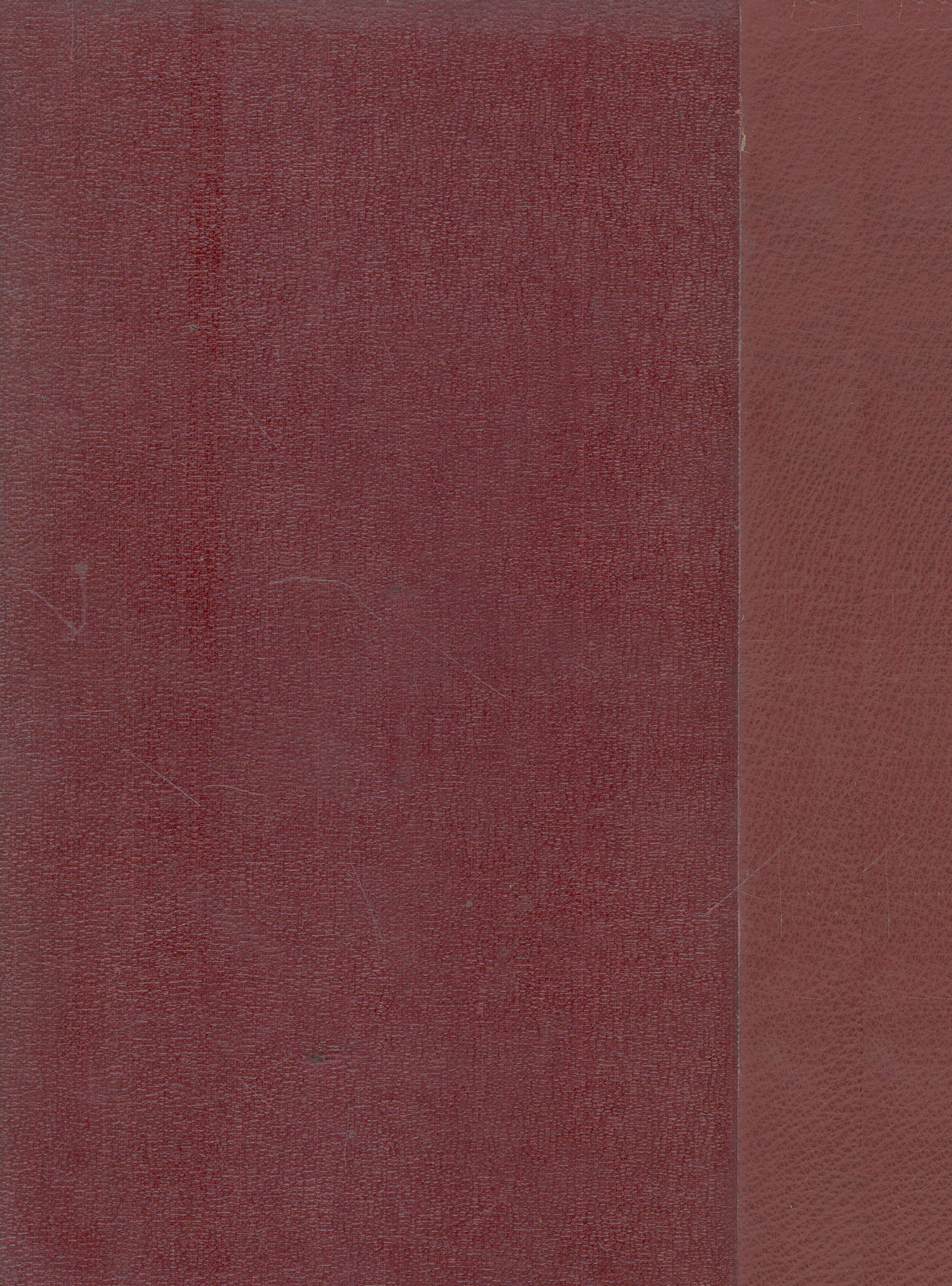
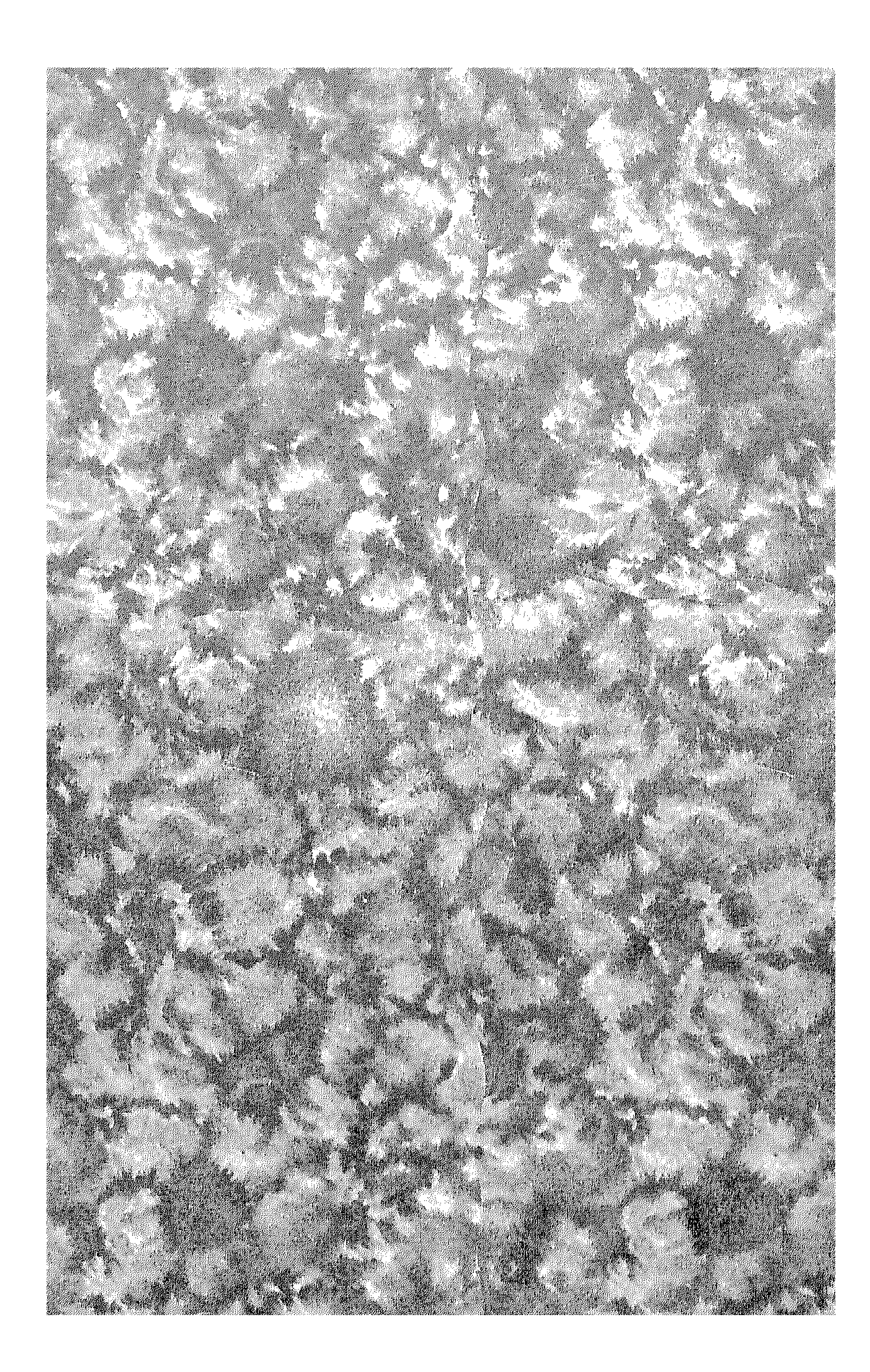
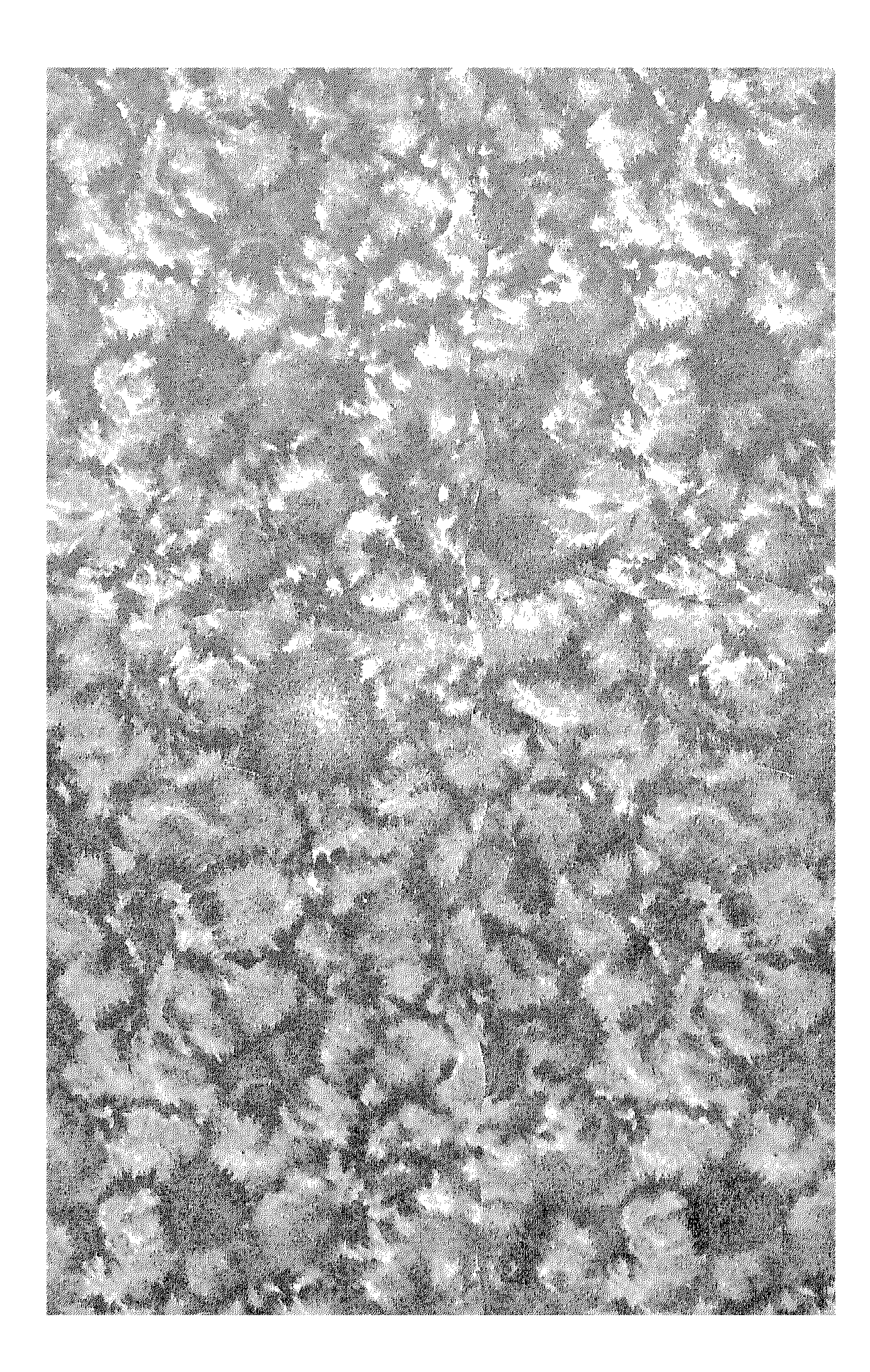
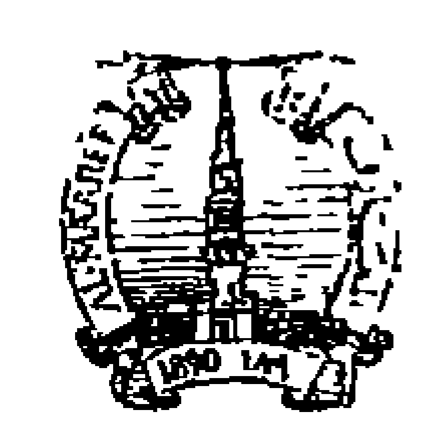






كفاح الشباب



للمؤلف :

مدرسة الشباب

موسوعة شباب هذا الجيل

* كفاح الشباب * مآسي الشباب * زواج الشباب

مدرسة العبقرية

* فوشيه : السياسي الأعظم البوليسي الأعظم
* هايني : أو حياة العذاب والابداع
* التلميذة الخالدة أو حياة مدام كورى
* حياة بلزاك : او القصصي الأعظم
* حياة شللي : أو قبور فى جنة الحب
* حياة بيرون : أو دون جوان
* عرش وقلب : او حياة لويس الرابع عشر

مدرسة المجتمع

* الغيرة من الماضي
* زوجات
* أنا الشرق
* رجال ونساء (١)
* رجال ونساء (٢)
* شباب الفولجا
* حياة قلب
* الموجة العذراء
* العاصية (مصور)
* غانيات (مصور) نفد
* مديحة أو الشيطان لعبته المرأة (قصة مصرية)
* المرأة لعبتها الرجل (مصور) نفد
* جرائم شرقية وغربية

مدرسة الحرب والسياسة

* مأساة فرنسا (مصور)
* أسرار انهيار أوربا نفد
* الرقص على البارود
* الطابور الأول (مصور)
* الوحش الأصفر والدب الأحمر (مصور) نفد

---

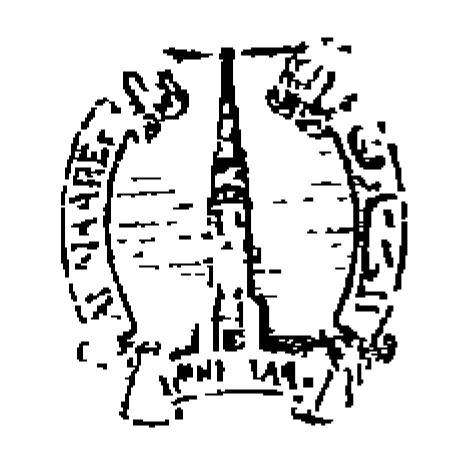
* باريس نفد * تاييس نفد * عدو المجتمع
* أفروديت نفد * طرطوف نفد * الزنبقة الحمراء نفد
* ماقل ودل (جزءان) نفد * عبيد الذهب (تمثيلية)
* الاصلاح فى مصر منذ ثورة ١٩١٩ « بالفرنسية »
* الصحافة المصرية منذ نشأتها الى اليوم
* فى الحياة والحب نفد

احمد الصاوى محمد

شباب هذا الجيل

كِفاحُ الشَّبابِ

الناشر



دار المعارف بمصر

شباب هذا الجيل

لا أكون مغالياً إذا قلت أن استفتاء : « شباب هذا الجيل » هو أعظم امتحان من نوعه فى تاريخ المجتمع المصرى ، بل فى تاريخ الشرق بأسره .

بدأ نشره على صفحات « أخبار اليوم » . لكن كثرة الموضوعات التى جاءتنا من تلك الشبيبة الناهضة المتحمسة لمثل عليا ، حالت دون الاستمرار فى ذلك وإلا استغرق نشرها بضع سنوات ! .

لذلك رأيتها أمانة فى عنقى أن أفحص هذه البحوث كلها ، وأن أختار منها ، وأن أؤجل الكثير لدراسات أخرى ، وأن أستبعد المتكرر أو المتطرف أو المتعارض مع الصالح العام ، وأن أعرض بعد ذلك هذه الخلاصة الفريدة ، وأعلق عليها تعليقاً مختصراً جهد الطاقة ، حتى جاءت آخر الأمر فى نحو مائة موضوع موزعة على ثلاثة أجزاء ؛ هى : « كفاح الشباب » و « مآسى الشباب » و « زواج الشباب »

ولعل هذه الموسوعة هى أسطع نبراس للشباب المتطلع لحياة أفضل وأنفع وأكرم ، وأثمن مرجع للمصلحين الحريصين على توجيه شباب الجيل وهدايته وتقويمه ونفعه ، ليكون جديراً بوطنه .

أما بعـــد . فشكراً للذين وثقوا بى ، ولبوا ندائى ، وحسبى أنى بلغت رسالتهم إلى قومهم ، اللهم فاشهد .



هذا الشباب !..

إن هـــذا المشكل صورة صادقة لتلك العوامل النفسية المتضاربة التى تعمل فى صدور طائفة غير ضئيلة من الشباب المتعلم المثقف ، فى مرحلة من أهم مراحل أعمارهم ، تلك التى يتوقفون عندها هنيهة يتأملون من شرفة الزمان الحلقات الثلاث التى قطعوها أوكادوا من طريق حياتهم ، فتعلموا خلالها ، وعملوا . . خبروا كبرياء العلم النظرى ، ومرانة الحياة العملية . تذوقوا حلاوة النجاح ومرارة الإخفاق فى التجارب العديدة التى واجهتهم أو سعوا إليها . ولكنهم مازالوا فى حلكة الشكوك وتيه الحيرة . لم تطمئن بعد أرواحهم المتعطشة إلى المعرفة ، إلى يقين تهدأ إليه وتسكن . ولم تتوصل نفوسهم التواقة إلى كنه ذلك السر الغامض الكامن فى أعماقهم . . . وإنهم إذ يحولون أنظارهم إلى الناحية المقابلة لطريق الحياة ، يحاولون أن يستشفوا خلال ضباب الرؤية وغبشه قبساً من ضوء الأمل ، يعوضهم عن شقائهم بماضيهم ، فلا يجدون شعاعاً .. باتوا يشقون بمستقبلهم ، ذاك الذى لم يروه بعد .. وها هم أولاء أصبحوا يحسون الوحشة فى وحدتهم ، ويشعرون بالدوار يأخذهم إذ يرون أنفسهم فى ذلك الخالق الذى رفعتهم إليه أخيلتهم الطليقة ، وأفكارهم الجريئة ، ويتمنون ، حين لا ينفع التمنى ، لو كانوا قد خنقوا هذه الأخيلة وقتلوا تلك الأفكار قبل أن تشب وتقوى فتحطم حياتهم ، إذن لعاشوا

كسائر الناس ، أولئك الذين يسيرون فى زحمة الجهاد العادى فى سبيل العيش ، يقبلون الدنيا على علاتها ، ويقنعون بالحقائق من أحزان ومسرات كما تأتيهم ، دون تحطيم الرأس بالتفكير فى طبيعتها . . فهل تراهم يحسون إذ يلجأون إليكم يازعماء الفكر وقادة الروح يبحثون فيكم عن الدليل الحادى الذى يقود خطاهم إلى سبيل الأمن ، إن كان ثمة سبيل حقاً ؟ ! . . سمها ياسيدى ماتشاء ، مأساة الخيال جمح فى عالم الحقائق ، أو مأساة الفكر ضل فى تيه المدنية ، فلا تهمهم معرفة التشخيص قدر اهتمامهم بالحصول على الدواء . . .

تعال ياسيدى لتنظر إلى أحدهم وتستمع ، فقد تجد فى سيرته وظروفه الخاصة اختلافاً عن سائر أصحابه ، ولكنه اختلاف التفاصيل تدرك البصيرة من خلاله جوهر المشكل الواحد نفسه . . إنه من أسرة متوسطة ، فوالده موظف حكومى تزوج بعد وفاة أم أطفاله ، فشعروا وهم مازالوا فى تلك السن الغضة بمرارة اليتم وقسوة امرأة الأب ، تلك التى كانت تحقد عليهم وجودهم فى الحياة بغير إرادتهم ، إلى أن أراحهم الله بوفاتها بعد أن شبوا فى ذلك الجحيم ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل منه إنساناً حييا إلى درجة الضعف ، مرهف الإحساس إلى حد الجزع إذا ماتوهم أنه قد أسىء إليه أو قد أساء إلى غيره بأية صغيرة ، منطوياً على نفسه إلى درجة التحفظ فى إظهار عواطفه الخاصة ، واسع الخيال إلى درجة التعلق بالأحلام والأوهام ، عميق الإيمان إلى درجة الثقة المطلقة بعدالة الله ورحمته ، شغوفاً بالحق والخير إلى درجة التفانى . . أقبل على تثقيف نفسه بنفسه ، فكان يلتهم كل مايقابله من الكتب

بشغف ، مفضلاً مايلائم مزاجه : الأدب بألوانه ، علوم ماوراء الطبيعة ، ثم أخيراً الفلسفة التى جعلت منه عاشقاً للمعرفة ، رائده الكمال والجمال ، وثبت فيه حرية الفكر وشجاعة الرأى .. أراد أن يصقل موهبته نحو الموسيقى والرسم فتعلمهما حتى عرف كيف يتذوقهما .. ودفعته الظروف إلى دراسة علمية عملية ، فما كان منه إلا أن أفاد منها على طريقته الخاصة. إذ جعل فى مستقبل أيامه من حياته الخاصة حقل تجاريبه . يجربها عليها بنفس الطريقة الدقيقة المنتظمة التى تعلم أسسها فى كليته ، وكذلك عرف منها كيف ينظر إلى الأمور من وجهات النظر المتعددة. والتحق أثناء دراسته الجامعية بالجيش الاحتياطى ، رائده فى ذلك أن يكون على استعداد لتلبية نداء وطنه إذا مادعاه .. وما كاد يتخرج حتى قذفت به الوظيفة إلى الأقاليم ، وهناك حيث تتمثل بصورة مصغرة متواضعة ، ولكن كاملة ، أسس المجتمع ونظمه ، تعلم فن الحياة ، وكانت أخلاقه المتطرفة إلى المثالية سبباً فى عدم تمكنه من الاندماج التام فى المجتمع ، فقنع بالمشاهدة دون المشاركة ، مفضلا متابعة دراساته وهو طليق النفس . . . .

وفى ذلك الهدوء الرائع بالليل وبالنهار ، بين مشاهد الطبيعة العذراء : الريف بخضرته الناضرة التى تبعث السلام إلى القلب ، وحقول قمحه الذهبية المتماوجة ، ونهره المقدس الخصب ، وسمائه الصافية ، وأحيائه الوادعة الكسـول ، وأهله البسطاء المستسلمين لأقدارهم . . أو البحر بزرقته العميقة ومخلوقاته العجيبة ، أو الصحراء المنبسطة بصفرتها الزاهية وجبالها الشامخة ، هنالك ، خلال بساطة الخليقة شعر بعظمة الخالق ،

وواتته الفرصة مرة أخرى أن ينعم ويحيا الحياة نفسها، بل ويتعزى عن إخفاقه فى الاحتفاظ بالطمأنينة التى حصل عليها المرة الأولى ، خلال حبه الوحيد الذى استمر عشر سنوات إلا قليلا ، فكان طوالها ، سواء شبوبه أو خموده ، ملهماً لعواطفه ، فلما عصفت به الأقدار كما كان يتمنى ويجاهد ، أسف وندم ، إذ أدرك أن الموت خير من حياة جوفاء جدباء .. ولعل نصيبه الكئيب هو الذى أوقعه فى تلك الصبية العابثة التى هى على غير دينه ، والتى لم يكن يراها إلا على فترات قصار متباعدة ، فصارت مصيره ...جعل منها محور حياته ، تنتشى لرؤية أو سماع أو ذكر كل مايتعلق بها : اسمها الحبيب ، صورتها الرائعة ، صوتها الحنون ، دلالها المرح ، حتى أهلها الذين كان يحسدهم على معيشتهم معها !.. وجعل من ضاحيتها البعيدة قبلته المقدسة يتجه إليها بصلواته اليومية ، فى الفجر الندىّ ، والليل الساحر ، مع عصارة قلب يتفتح لأول مرة فى ربيعه التاسع عشر .. وعانى الكثير من خجله قبل أن يجرؤ على مصارحتها بحبه ، بعد سنوات ثلاث ، وبرغم تقديمها ألف دليل ودليل على حبها له ، وإيثارها إياه .

لقد كان يخشى أن يسىء إليها بحبه الذى كان أنقى من ندى الصباح ، وتفتح قلبه الكبير بعد أن اطمأن لحبها ، فوسع الناس أجمعين ، وصارت السعادة تقض مضجعه ، فيصحو من أحلام كانت هى محورها ليرفع تسابيحه فى سكون الليل إلى الله الكريم .. ولكنها ، قبل أن يكتمل العام على شعوره بالطمأنينة ، تركته إلى غيره ، ممن هو أيضاً على غير دينها ، لغير ماسبب جناه اللهم إلا حسناته ، وحمد لخجله ،

كما لم يحمد من قبل، أن جعله يجتاز محنته وهو طاوٍ آلامه فى إصرار عنيد ، وصمم على نسيانها ، ولكن حبه كان أقوى من أن يستطيع التخلص منه بمثل هذه السهولة ، وخانته أعصابه يوماً أمامها ، فعرفت أنها ما زالت سيدة قلبه ، فامتهنت ضعفه ، فثارت كرامته المهينة ، ورجولته الجريحة . ومن وقتئذ وهو يؤمن إيماناً مطلقاً بأن الضعف أمام النساء جريمة ، وصار التفانى والإخلاص وإظهار العطف والحنان من قرائن الضعف ، وابتعد عنها ، وتفتحت له قلوب صغيرة بريئة ، فأقبل يلهو ويتنقل ، فقد كان محظوظاً من هذه الناحية ، ولكنها إذ سمعت ذلك عادت إليه ، فتناسى وصفح بطيبة قلب ليتها لم تكن فيه ، إذ عادت تكرر معه سيرتها القديمة ، تعبث مع غيره وغيرها ، فكان اشمئزازه من مسلكها المتكرر بعد إذ وضح له رياؤها وتلاعبها باعثاً على الجهاد والخلاص منها .. . ولقد حدث فيما بعد أن طاف به طائف خفى أن يعود إلى ذلك الذى آمن به فأجبر على الكفران ، وذلك حينما وجد قلباً محباً له ، على دينه ، فانتوى الزواج لعل حياة الأسرة تضفى على الحب صفة الاستقرار ، ولكن مأساته كانت ترجع إلى صدقه فى الحب الأول ، وإذ كانت طبيعته تمقت الرياء ولا تستسيغ الخداع فقد تخلى عن الاستمرار فى تمثيله ، وتراجع بعد أن بدأ أو كاد .

وسرعان ماتكاتفت خيبته فى الحصول على الطمأنينة من هذا الطريق ، على وجوده قرب الوسط المكافح ، على أن يترك موقفه السلبى ويلقى بنفسه فى التيار ، يطلب مايطلبه الناس : العمل والمال.. واستلزم ذلك منه محاولة الاندماج فى المجتمع ، فأخذ يحلل أسباب

إخناقه السابق ، فعرف أنها ترجع إلى تمسكه بالمثالية التى يعجب الناس بها ، ولا يعملون على نهجها ، بقدر مايرجع إلى أفراد تلك الطائفة من الناس التى « تخاف ولا تستحى » تلك التى تعتبر دماثة الطبع ورقة المعاملة ضعفاً ، وخفوت الصوت فى المجادلة دليل تفاهة الحجة ، وتحقير أسهم الغير تصعيداً لأسهمهم وتوكيداً لتطرفهم ، والتأدب فى عدم المطالبة بالحقوق استكانة ، والمغالاة فى المروءة إلى حد حمل هموم الغير سفاهة ، فراجع نفسه ، وتعلم القسوة فى المعاملة ، ورفع الصوت فى المناقشة ، والمغالاة فى المحافظة على كرامته ، والتشدد فى المطالبة بجميع حقوقه ، والاكتفاء بحمل همومه الشخصية ... ولكن سرعان مالاحظ أن تطرفه الجديد فى هذا الاتجاه جعله غير قادر على الاحتفاظ طويلا بتلك الفرص التى كانت تهيئها له موهبته بتفتح قلوب الناس له بسهولة ، وأقنعته التجربة بأن المجتمع يقنع بالبريق دون الجوهر ، فرجع أدراجه يغير من عاداته ، ويصقل من موهبته ، فتعلم أن يكون رقيقاً دون تخاذل ، وأن يبتعد عن الخصام ما أمكن ، إلا إذا لم يكن منه بد ، فيهاجم بحزم لدفع عدوان ليس إلا ، وأن يحافظ على كرامته بشىء من المرونة والكياسة ، فيتغاضى عن تلك الإهانات التى تسقط من تلقاء نفسها إذا لم يعبأ بها ، وأن يتجنب فى لحظات ضيقة ذلك المجتمع الذى جبل على ألا يرحم من يخطىء مهما كان سلوكه الماضى مشرفاً ، حتى يتمكن من ضبط نفسه والتحكم فى عواطفه باستمرار ، وأن يتواضع ويساوم فى حقوقه وواجباته ، وأن يؤدى الخير إلى أهله بلباقة ...فنجح ونال إعجاب الكثيرين

بشخصيته الجديدة . . . وواتته فضلة من المـــال فاضطر إلى مجاراة الوسط مجاملة ، أقبل على النساء والخمر والميسر ، ولكن كان من الصعب على نفسه أن تستريح إلى الملذات الخليعة المتبذلة التى تفقد المرأة معانيها الطيبة ، وتلوث معنى المسرات العائلية المقدسة التى كانت مطمحه فيما مضى ،أو تهدأ إلى مسرات الخمر الصناعية وما يستتبعها من فقدان السيطرة على النفس ، أو يرضى قلبه الرقيق عن معارك القمار التى يصمم كل فرد فيها على أن يكون القانص قبل أن يكون الصيد ، فسرعان ماتمالك نفسه وعزم على التراجع ، وأخد يدرب إرادته حتى قويت فانسحب بكياسة ، وهو يشعر بقيمة الحرية التى تهبها الإرادة القوية لصاحبها ... بيد أنه لم يستطع الاعتراف فيما بينه وبين نفسه بأنه راض ، بل على العكس لاحظ أن القلق قد أخذ يرسم على وجهه الشاب أخاديده التى لاتخطىء .

وفارقته نظراته المشرقة المرحة ، وتعبيراته البديعة الوادعة ، فأخذ يسلط عقله بجرأة ، فنفذت بصيرته الحساسة إلى السبب سريعاً ، لقد كفر بتلك الاعتبارات والقيم التى كان يدين بها فيما مضى ، وصار لايجد حرجاً فى تلك الأخلاق التى تقف حقيقتها عند مسمياتها المنمقة : قسوة ، ونفاق ، وشهوات بهيمية ، تدعى عدلا ، وصداقة ، وحباً . واستعبد المال — ذلك الجاد — روحه ..إذ رآه يهب لأصحابه القوة والجاه والسلطان ، فيجعلهم يتمتعون بالقوانين التى تحميهم من الضعفاء وبالتقاليد التى تعتبر جرائمهم هفوات ، وبدأ إيمانه المطلق فى العناية الإلهية يتخلله ظل من الشك عندما أصبح يجد فى هذا السد المزعزع

الملاذ الوحيد للأمن .. فسرعان مالعن نفسه على سقطته ، وأخذ يغتفر للناس سقطاتهم بعد إذ أدرك .. وابتهل إلى الله أن يحفظه من لحظات قوته تماماً كما كان يبتهل إليه قديماً كي يحفظه من لحظات ضعفه، ورجع يزدرى المال بقدر ما كان يفعل فيما مضى ..

وشعر بحاجته إلى الهدوء بعد تلك التجربة ، فرجع إلى الريف حيث الطبيعة الساحرة ، ولكنه فزع إذ رأى نفسه قد فقد حتى هذا العزاء .. لم يعد يستمع إلى هتاف الكروان وهديل الحمام وخرير المياه الناعسة ، بل إلى نعيق البوم والغربان فى الليالى المظلمة المرعبة ، وكأنها سياط عذاب تلهب بها الزبانية قلوب الخاطئين وإلى صخب تيار الماء الهدار عند منحدرات توليد الكهربا ، وكأنها ضجيج أمواج من اللهيب فى حر الجحيم إذ ينفتح له ليبتلعه ، ولم يعد يرى سذاجة القرويين بل قسوة أطفالهم وهم يقذفون الكلاب الضالة النابحة بالأحجار وينتزعون ريش العصفور الصغير ، ويزفون الحمل المزين إلى المذبح مهللين ، ولم يعد يهنأ بالشمس المشرقة والقمر المنير والكواكب المتلألئة ، بل يشتى بالأجواء العاصفة ، المرعدة الملبدة بالغيوم ، ويتمنى يائساً أن يهطل غفران الله فيمسح عن نفسه آثامها ، كما تغسل دموع السماء أوراق الأشجار مما عليها من أتربة ، فتعود ناصعة ناضرة كما كانت أو كما لم تكن من قبل .. لم يعد يذكر من ماضيه العبرة والخبرة واتساع الآفاق ، بل يرى أمامه الأخطاء والبطر وإفلات الفرص وتساقط القيم تحت منجل الواقعية الهدام ..

وأخيراً قاده الإخفاق المتتابع إلى الشك فى صحة الطريق الذى سار

فيه حتى ذلك الوقت فأضاع من حياته أهنأ فتراتها ، وهى فترة الشباب فى الأوهام ، فانطلق يكبح من آماله ، ويتجرد من أمانيه ، حتى تحرر منها تماماً ، فاذا به يفقد طعم الحياة .. ولم يكن فى ذلك التصرف متسرعاً ، فكم من أمان حلوة طيبة جاشت فى صدره الحنون فلم تتحقق ، حتى ماتت أنبل المشاعر وأنقى الأحاسيس .. لم تعد الآن وطأة الشقاء تثقل عليه ، ولكن مسراته أصبحت تافهة سطحية ، تهب على صحراء نفسه الجرداء لتزول بأسرع من رد الطرف ، كنسمات رطيبة سريعة فى يوم قائظ .. أصبح ملولا كثير التنقل يذرع القطر من أقصاه إلى أقصاه ويجاهد للخروج منه ، لايستقر على رأى إلا بمقدار مايفعل الطائر القلق على الغصن ، يقبل على كل جديد بشجاعة لم تنقصه ، بلغت درجة الاستهتار ، أن يبدأه دون أن يكون عنده العزم والتصميم على متابعته إلى النهاية ، لايهمه النجاح أو الفشل. قليل الصبر ، وفيم التظاهر به بينا هو كاظم غيظه مضمر فى نفسه سكون العاجز ؟! الزمان يهدر عليه بثقله يوماً بعد يوم ، وهو يسير لأن الحياة لاتعرف السكون ، والسكون الوحيد فى عرفها هو الموت .. لم ولن يترك أثراً إلا كذلك الذى تتركه الظلال على الجــدران ، حتى تنقضى أيامه ، فيمضى فى طريق من سبق ، من الفناء ، وإلى العدم ..

***

هذا هو التحليل الشائق الذى كان السبب فى إثارة استفتاء شباب الجيل » واثقين من أن صاحبه هو من خيرة الشبية الناهضة المتحمسة العاملة لمصير عظيم لنفسها وبلادها ...

حديث شاب مكافح

« م ... » شــاب مكافح مناضل ، لم ينشأ في بيئة ذات مال ، بل كانت نشأته وسط أناس يكافحون في سبيل حياة أحسن وأفضل ، وقد كان يعد الأيام والأسابيع خلال مرحلة دراسته الثانوية لكي يواجه الحياة ويأخذ منها بقسط يمكنه من معاونة أولئك الذين عاونوه .

وبانتهاء دراسته هذه لم تنته حياته ، كما تنتهي — في الغالب — حياة زملائه ممن نشأوا في مثل ظروفه ، بل إن آفاقاً جديدة تفتحت أمامه ، أو بالأحرى آفاقاً جديدة فتحها أمام ناظريه ، وكان يحلم ليل نهار بتحقيق هذه الأماني العذبة ولا يجد إزاءه عقبة إلا ذللها — في خياله الواسع — وبذلك مهد الطريق إلى حياة رحيبة واسعة ، تنتهي عندها مواكب آماله . . .

لم يفكر — كما يفكر أقرانه — في الزواج أبداً ... ولم يفكر — كما يفكر أقرانه — في موفور الملابس والأطعمة أبداً ... ولم يفكر — كما يفكر أقرانه — في ماديات الحياة أبداً ... بل كان كل تفكيره منصباً على الخروج من قيد الوظيفة واستكمال دراساته التي لا نهاية لها ... وكان هذا — على من كان في مثل حاله وظروفه — أمراً صعباً عسيراً ، بل يكاد يكون مستحيلا ، فهناك واجب إيفاء ما عليه من دين نحو أهله الذين أرهقهم بنفقاته ، ثم إن هناك واجباً عليه نحو نفسه التي

أرهقها بمثالياته ، وكل هذا وذاك يتعارض مع أمانيه التى تدفع به إلى ترك الوظيفة والالتحاق باحدى الجامعات .

ولكن لصاحبنا هذا إرادة وعزم من حديد ، وهو كالجواد الأصيل ، يصل إلى غايته دون أى اعتبار إلى أداء الواجب على أحسن مايكون عليه الأداء ، وهو يعرف تماماً أن التعب الممض تعقبه راحة فكرية هى لذة الحصول على ماجوهد من أجله ، ولا بأس من أن يسبب بعض الآلام لأهله ، وأن يسبب بعض الآلام لنفسه ، وليكن لهم وله من هذه الآلام صقل لنفوسهم فوق صقلها وتهذيب فوق تهذيبها .

وكان أسعد يوم فى حياته يوم أن وجد نفسه وسط طاقة من أزهار متفتحة تعيش كلها على الآمال الواسعة ، وقد حجبت عنهم الدراسات النظرية البهيجة مافى الحياة العملية — التى خبرها صاحبنا ونال منها ونالت منه — من ضروب الأنانية والتكالب على ماديات الحياة ، وما فى الحياة العملية من صور غير كريمة لامتهان إنسانية الفرد ، وأحياناً تحقير كرامته ...

ولسنا نترك صاحبنا هذا فى ميدانه الجديد دون أن نتعرض إلى حياة أخرى ، أو بالأصح إلى جانب آخر من جوانب حياته ، فهو — كما قلنا — شاب قوى مكافح من شباب هذا الجيل المتوثب ، ولا بد أن له ناحية عاطفية تملأ فراغ حياته إن كان ثمة فراغ ، ولطالما تساءل المحيطون به عما يدفعه إلى هذا الجهاد الشاق المرير ، فهو لاينام ككل الناس ، وهو لايأكل ككل الناس ، بل إن حركاته وسكناته كلها تدل على أن قوة دافعة خفية توجهه وتميد من نزواته وبدواته ، إنه

ينطوى على نفسه ، ولا يتدخل فى أمور الناس ومشاكلهم ، بل إنه ليترفع عن ذلك ويجد نفسه سعيداً فى اصطحاب كتابه ، وفى حجرة صغيرة وعلى مكتب متواضع يظل يقرأ ويقرأ ثم يسرح طرفه فى حدود مكانه ، وخارجها ، ولا ينتهى به الفكر إلا حيث بدأ ، وبهذا يقضى معظم أيامه .

يتساءل المحيطون به عن سر قوته فى كفاحه ، تلك القوة التى تقلب — مع شىء من معاونة القدر— المستحيلات إلى ممكنات ، ويظلون يتساءلون ، ولا يجدون لتساؤلهم من جواب ... فهو وحده الذى يطوى سر هذه القوة ولا يعرف أحد كيف يستدرجه إلى إفشائها !

كان فى طفولته يقضى أشهر الصيف فى القاهرة حيث يلعب ويمرح مع قريبة له ، وكان — وهو فى الاسكندرية — يرقب حلول الصيف بفارغ الصبر حتى يضم أخته — كما كانوا يسمونها — ويعبث بشعرها الفاحم كسواد الليل ... وقد مضت على ذلك سنون كان فى أثنائها يترقب الأيام وتترقب هى الأيام حتى يكون اللقاء الذى تغرد من أجله صادحات حديقه منزلها ، وتهتز من أجله أغصان الورود وأوراقها ... كانا يستيقظان مع طلوع الفجر ويرقبان بزوغ الشمس ، ويتكلمان — وهما صغيران — فى أشياء لايتكلم فيها إلا الكبار ... كانت تهتم به وكان يهتم بها ، ولا يرى بحواسه الدقيقة مايحول دون تحقيق أمنياتهما السعيدة ...أليست الطيور تغرد مع تغريدهما ، والغصون تتمايل مع اهتزازهما ؟ كان يتحمل قسوة الحياة من أجلها ، وكان دائماً يتفوق فى دراسته حتى — إذا ماجاء حلم ليالى الصيف — يستطيع أن يجد

مايرسم به ابتســـامة فخر على شفتيها الرطبتين ... أحبها حباً ملك عليه عقله وفؤاده ، فصار يرسم من أجلها الصور فى أوضاع شاعرية خلابة ... لقد أنمت فيه موهبة الرسم ... وصار يقرض من أجلها الشعر ... لقد أنمت فى إحساساته موهبة القريض ... وصار يكتب من أجلها خطابات المناجاة ويحتفظ بها فى مكان حريز ... فصيرته ذا أسلوب واضح ... وقصارى القول لقد خلقت منه فناناً مرهف الحس يشعر بالسعادة قبل شعور غيره بها ، ويتألم من وخزات الحياة قبل أن يتألم غيره منها ... بل إنه ليشعر بالسعادة من أشياء لايشعر غيره بالسعادة منها ، ويتألم من أشياء لايتألم غيره منها ، سكبت فى روحه حيوية دافقة ، فصار إنساناً كما أراد الله ، أن يكون الإنسان ، وألهبت جوانحه فصار كشعلة تضىء ولا تحرق ؛ فقد غلفته بسياج حبها وأفاضت عليه من عاطفتها ماجعله فى منأى عن شرور الناس وآثامهم .

ليت كتاب حياته طويت صحائفه على هذا الفصل !.. إذ لو تم ذلك لكان قد أطبق عينيه على أجمل معانى الحيـــاة !.. لكن القدر كان يخبئ له المفاجآت ... فقد مضى صيفان حالت بعض الحوادث فيهما دون سفره إلى حيث يلقى مالكة قلبه ، وفى هذه الفترة كان قد اكتمل نضوجها ، ولما يكتمل نضوجه ، فالفتيات ينضجن — كما يقولون — قبل نضوج الفتيان ، وتواترت الأخبار بأن فاتنته وجدت من يصلح لها زوجاً ، وإنما اختارته ، أو اختاروه لها زوجا من طبقة الأثرياء الذين فى وسعهم إحاطتها بضروب من الرفاهية والعزة ، ولم يصدق — بادئ ذى بدء — هذا الكلام

المتواتر ... وأرسل لها خطابا يستفسر فيه عن النبأ اليقين ، فكان الرد عدم الرد ...

هل كنا عابثين ؟.. هل كان غرامنا غرام أطفال ؟.. هل كانت أيامنا مجرد إضاعة وقت لاأكثر ولا أقل ؟.. بمثل هذه الأسئلة كان صاحبنا يحادث نفسه حتى خاف على نفسه الجنون ، ومع ذلك فقد عرف فيما بعد سبب التغيير الذى طرأ ، وكانت معرفته هذه سبباً من أسباب احتقاره للحياة وماديتها ، إذ أن صاحبته تمكنت من إقتناع نفسها بأن صديق طفولتها أمامه كفاح مرير ، ولا يستطيع أن يكفل لها ما تحتاجه فتاة مثلها من ألوان المتع وصنوف الرفاهة ، ولا نطيل في هذه الناحية ، وكل مانذكره هو أن هذه الصدمة لم تصل بصاحبنا إلى الكفر بقيم الأشياء وطبائعها ، بل إنها ألبسته ثوباً جديداً من الواقعية وأسبغت عليه رداء من العزم والصلابة أضافهما إلى ما أضفت الأيام عليه من ثياب الكفاح ...

وبهذا الروح الجديد استأنف السير فى الحياة ، سار فى موكبها لايلوى على شىء ، أمامه هدف ، ونصب عينيه نتيجة لابد أن يحصل عليها ، وبعد كل مرحلة وأخرى ، وأنفاسه تلهث من الوصب والعناء ، يقف قليلا لينظر من خلفه إلى الطريق الشاق الذى قطعه ، ثم ينظر فى حاضره، ثم ينظر إلى الأمام طويلا ، إلى الطريق الشاق الذى ينتظره ، ثم ينطلق كالجواد الأصيل لايلوى على شىء ، ولا تقف أمامه عقبة ...

حديث شاب فقير

ولد فى قرية من قرى المنوفية ، من أسرة فقيرة ، لاتمت إلى الغنى بسبب ، ولكنها تتصل من التقوى بأكثر من سبب ، فجده كان شيخاً زاهداً دائم الصلاة يخلو إلى ربه سواد الليل ويقضى بعض نهاره مضطجعاً فى لحده الذى أعده بيده ليكون كما كان يقول قريباً من الآخرة ، بعيداً عن الدنيا ، وكان والده موظفاً صغير الوظيفة ، ولكنه كبير النفس طاهر الذيل ، يجوع ويتألم ولا يعلم إلا الله جوعه وألمه ...

أرسله والده إلى المدرسة الا بتدائية ، فظهر بروزه فى الخطابة والإنشاء ، ثم أرسله إلى المدرسة الثانوية فكان متفوقاً فى كل النواحى ، تصدر الصفوف الأولى فى كل مراحلها جميعاً ، وقويت فيه ملكة الخطابة والكتابة ، حتى إن أستاذه توقع له أن يكون خطيب عصره ، وكان أمامه الطريق مفتوحاً للتهريج الحزبى ، فأبت نفسه غير ما يعتقد ، وكان اعتقاده أن الحزبية فى بلده ما هى إلا تجارة رخيصة يروجها المشتغلون بها ليصلوا إلى الشهرة والحكم من أقرب الطرق . لم ترق فى نفسه هذه التجارة ، ونظر إليها نظرته للشىء المحرم على الرجل الذى يخشى ربه ويسيطر عليه ضميره ، وهو لن يأكل الثمرة المحرمة ، ولو تساقطت نفسه جوعاً وأسى ..

إن أمله قوىّ فى الله ، إنه شديد الثقة بنفسه ، إنه سينتصر ويصل

إلى مايبتغى عن طريق الهدى والفضيلة ، وكيف لا ، ورائده قول الرسول الكريم : « أدع الله تجده تجاهك وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء ماضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، ولو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء مانفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

إنه لن يفقد الثقة بالله ، ولن يؤثر عن طريق الحق طريقاً آخر ولو هلك دونه . إنه لن يسجد لصنم من أصنام السياسة ، إنه سيفعل أكثر من ذلك ، إنه سيحطمها بيده إن استطاع .. !

أخذت هذه المعانى تتجسم فى نفسه وتقوى حتى كان يحس أن أمله بين يديه ، أو يكاد ...

وألهته هذه المعانى فكان يقوم الليل إلا قليلا ، منكباً على دروسه فى لذة وطمأنينة ، ولكن كان لإرهاق نفسه نكسة ، فأصابته حمى ، أقعدته عن العمل مدة طويلة خرج منها مجتازاً امتحان الشهادة الثانوية متمتعاً بالمجانية فى الجامعة ولكن بغير ماكان يأمل من التفوق.

وكانت هذه أول صدمة لقيها ، وماهى إلا أيام حتى مرض والده مرض الموت ، ففقد نهائياً الأمل فى دخول الجامعة ، لأنه كان مجبراً على أن يعول إخوته وأمه ، وهنا فقط بدأ يفيق من نشوة الحلم القديم ويتذكر قول صديق له فى المدرسة : « إن المسألة ياعزيزى ليست مسألة درس وتحصيل ، ولكنها مسألة مال وجاه ، فانك بالمال تستطيع أن تحصل على ماتريد ، تحصل على الدرس ، بل وتشترى

الدروس ، بل وتنشيء مدرسة خاصة بك تلقنك الدروس !.. وبالجاه تتفتح لك الأبواب ، وتعبد لك السبل ، ويفسح لك الطريق فتأخذ لنفسك ولأهلك مايحلو لك ولهم من متع الدنيا ولذائذ الحياة ، أما مع الفقر فهيهات ... هيهات !..

تذكر المسكين هذه الكلمات فى مرارة وحسرة ، وأخذ يقلبها على وجوهها ، فاذا بها أقرب إلى الحقيقة مما توهم ، نعم ... إنه المال أول كل شيء وآخر كل شيء ، إنك أيها الفقير لن تستطيع أن تقف أمام ابن البك أو الباشا ، ولو أوتيت حكمة لقمان ...

وأخذت هذه الأفكار السوداء تضيق عليه الخناق وتشعره بشيء من الذلة ، ثم بشيء من السخط ، ثم بشيء غير قليل من اليأس .

لقد حاول أن يتم دراسته العالية عن طريق الانتساب فلم يستطع لأن قوانين الدولة لاتبيح ذلك ، نعم ... نعم ... فلنذعن . إن العلم لم يخلق للفقراء ، لقد حاول تحسين مركزه المالى فلم يفلح ، إن الترقى والظهور لم يخلقا إلا للأغنياء وأبناء الأغنياء !

إنه بين تيارين : تيار يشده إلى الاعتصام بالرضا والصبر ، وتيار يجره إلى طريق يبرق من بعيد ، طريق الحزبية أو المحسوبية أو الاستخذاء وعبادة الأصنام ، تقدم ، تقدم أيها الحالم،إن لكل شيء ثمناً ، فلن تجد من يمد إليك يداً خالصة لله .

ولكنه لايريد !.. إنه يؤثر الصبر ، ويتحسس وسط هذا الليل البهيم على نور الإيمان طريقاً للخلاص ، إنه استطاع أن يرجو أسرته فى حسرة وانكسار أن تقبل مزيداً من التقتير لتتم تعليمه عن

طريق تلمسها فوجدها ، لقد أتم تعليمه الذى أراد ، لقد عاوده كثير من إيمانه القديم .

إنه يشغل إلى الآن مركزاً متواضعاً ، ولكنه يأمل ...

إنه يسير فى معركة الحياة مكدود الخطى ، مثخناً بالجراح ، ولكنه يسير .

إنه يريد أن يمتحن الفضيلة من جديد ، ويطمع فى أن ينتصر...

* * *

إنه سوف ينتصر حتما ، إن شاء الله . فالفضيلة تنتصر دائماً. فمادام متواضعاً ، مناضلا ، أمامه هدف ، ونصب عينيه مثل ، فلا بد من صنعاء وإن طال السفر . .

على بركة الله يابنى . . .

... من القرية

هذه قصة شاب استقبلته الحياة بالسخرية فلم يبالها ، ومضى قدماً ، فأعثرته فى أولى خطواته ، ولكنه استطاع أن ينهض من عثرته متكئاً على عون واهٍ من جانب أمه الضعيفة . ثم ألقت به الدنيا إلى ركن شبه خرب ، ولكنه ظل ينقر بإصبعه جدران الشقاء المحيطة به ، حتى إذا أحدث فيها فجوة مرق منها إلى حيث يتنسم ريح الوجود الصحيح عنده لايكون إلا باستكمال النفس حظها من العلم ومن المعرفة ، فهما الجناحان اللذان يحلق بهما فى رفيع الأجواء ، وينجو بهما من الارتكاس فى وهدة الشقاء ...

كان أبوه شيخاً كثير الحظ من الورع ، قليله من الرزق . وكان يشغل عملا حكومياً متواضعاً فى حاضرة مركزهم يغل عليه سبعة جنيهات كانت حسبه ليحيا وأسرته حياة الكفاف ، لأن قريتهم كانت قريبة بحيث استطاع أن يقيم فيها أولاده .

وقد تلقى صاحبنا هذا مبادىء القراءة فى «كتّاب» القرية ، واستظهر القرآن ، فلما كان فى الثامنة من عمره ألحقه أبوه بمدرسة ابتدائية ، بعاصمة المركز ، وكان هذا حدثاً عجيباً ، فلم يكن بالقرية عهد بغير تعليم الكتاتيب ، ورأى الناس فى الشيخ الوالد مروقاً على التقاليد ، ولاكته ألسنتهم الجاهلة ، وبينما يتخطى التلميذ السنة الثالثة

إلى الرابعة ، من تعليمه الابتدائى ، امتحنه القدر بموت أبيه ، الذى لم يكن يملك شيئاً . ولكن أم الغلام — التى كانت بعيدة عن أبيه المتزوج بغيرها — أظلته على ضعفها بجناح غير مريش بالغنى أو الثراء ... على أن هذا كان حسبه ليتم تعليمه الابتدائى ، وليتخطى من مرحلة التعليم الثانوى سنتين دراسيتين يعجز بعدهما عن أداء نفقات التعليم — رغم نجاحه -- فتلقى به الحياة إلى واحة العمل فى مزرعة ببضعة قروش يومياً لاتكاد إذا تجمعت آخر الشهر أن تتم الجنيه .

لكن الروح الوثابة فى الفتى لم تخمد جذوتها المتقدة ، والتمست لها متنفساً فى مدرسة التجارة الليلية التى حصل على إجازتها الدراسية . بيد أن هذه الإجازة لم تيسر له أن يطرق باب الجامعة حيث التعليم العالى الذى هو حلمه السعيد ، وأمله الوحيد .

لم يسعه إلا أن يترك هذه الواحة المجدبة التى كان يعمل فيها شبه أسير ، وأن يضرب بمنكبيه فى زحمة الحياة بالعمل الحر ، فبورك له وحصل على بعض ما يحقق أمانيه . فاستأنف جهاده العلمى حتى اجتاز امتحان « الثقافة » وأختها « التوجيهية » بنجاح . ثم التحق بكلية الحقوق فى الجامعة .

وهنا يطلق الفتى لبراعه العنان حيث يقول :

« وجدت الحياة الجامعية على غير ماحلمت ، على غير ماقرأت عن مثيلاتها فى بلدان العالم ، وجدت أن هناك هوة سحيقة بين الأستاذ والطالب ، وتلمس ذلك أثناء المحاضرات العامة — فمحرم على الطالب توجيه سؤال لأن فى ذلك تشويشاً على ذهن الأستاذ

وفكره المنظم المرتب المنسق ، وكذلك تتسع هذه الهوة بين بعض الطلبة وبعضهم – فتجد أحدهم يحضر مستقلا كل يوم عربة فاخرة .. فهذه باكار ، وهذه كريزلر ، وهذه بويك ، وهذه .. الخ من أسماء لا علم لى بها . وتجد آخرين يركضون فى الصباح لحضور محاضرات الأقسام الخاصة الصباحية ...

تجد بعض الأساتذة – فى تأليفهم وإنتاجهم – لم يراعوا مستوى الطلبة الفقراء أمثالى فهم ينتجون لأنجال «فلان» باشا وآل «علان» باشا وغيرهم من أغنى أغنياء القطر وداسوا كل الاعتبارات الاجتماعية التى تحمى أمثالى من جشع الأساتذة المؤلفين وأصحاب المكتبات الطامعين ...

وأقسم بشرفى إن كل ما أسطره هو الصدق بعينه وإنى أبرأ بنفسى من الغمز واللمز السياسى الذى استفحل أمره فى الجامعة وستجد لما أقوله صدى فى كل أرجاء الجامعة ... ومع ذلك اضطر للاستدانة لشراء هذه الكتيبات حتى لا أجد نفسى ضمن الراسبين ...

وتصادف أن وجهت سؤالا إلى أستاذى يوماً عن رأيٍ قرأته فى المكتبة فرمانى – حفظه الله – بألذع الكلم . وإنك تعلم أن غالبية الطلبة تتحاشى المناقشة فى رأى ولو كان خطأ بدلا من أن يتعقبهم حتى الامتحان !!!..

بالله ياسيدى أخبرنى حقيقة –: ألم تر فى يوم من الأيام أن تشارك إحدى الزميلات فى رأى لها ويكون هذا لوجه الله تعالى ؟.. أى تكون زميلة حقيقة بمعنى الكلمة التى يفهمها كل غيور على بنات جنسه ... أحقاً ياسيدى الكاتب أنه إذا حدث توافق بين إرادتين

واتحد رأيان — بين شاب وفتاة فى نظرية عملية — لابد أن يكون الزواج أثراً لهذا التوافق ؟ ...

إنى قرأت لك فى بعض المناسبات أن هناك سيدات فضليات كن شموعاً تضىء فتنير الطريق لشبان يصلون إلى نهاية مآربهم دون أن يتقاضين الثمن .

أين هؤلاء القديسات ؟ أين هؤلاء الملائكة ؟ لم أعثر على إحداهن بين من رأيت من الزميلات أو غيرهن ..

لعلى إذا اتجه بصرى إلى زميلة قالت فى نفسها لم يكن هذا بالزوج الذى أرغب .. وتشيح بعينها عنى ! ! !... وإذا سألت إحداهن عن رأى لأحد الفقهاء « تنحنح » الزملاء « وصفروا » لأن كيوبيد كان يعقد معاهدة بين طرفين ، بل عقداً لازماً مؤبداً لن يلحقه شرط فاسد ! . . . .

صدقنى لو قلت لك إنى لم أنعم بالضوء الكهربىّ إلا فى المساجد والجامعة وعند منازل الاقارب الموسرين . أما فى منزلنا حيث أذاكر وأقضى جل الوقت بين الكتب والنظريات وآراء ديجى وبلانيول وجيزوجودبى ولمبروزو وجرتيوس وريكاردو وآدم سميث وأبى حنيفة رحمه الله ... أقرأ وأناقش هذه الآراء على ضوء مصباح الغاز الذى يشهد على مقدار التعب والألم الذى أتحمله فى تنفيذ الخطة المرسومة حتى كدت أفقد عينىّ لشدة إنهاكهما ، ورغم ذلك يأنف زملائى الأعزاء — ممن واتاهم الله ثراء بغير كد — أن يخاطبوا عباد الله الفقراء أمثالى » .

ثم خلص الفتى من هذا إلى أنه واسع الأمل فى المستقبل — لا لنفسه ولا لطمعه فى منصب حكومى فإنه عازف النفس عن هذا — ولكن لأمته . فهو سيختار الميدان الذى سيعمل فيه ويكافح ، من أجل إخوانه الذى يعانون فى الحياة بعض ماعانى ، حتى يتحقق لهذه الأمة عيش فيه رغد لجميع طبقاتها ، وفيه خفض ودعة لفقرائها ، وفيه رفع للمستوى العام — الأخلاقى والعلمى والاجتماعى — بحيث تصبح جميع صحارى الشقاء حقولا خصبة فيها ظل وثمر وزى ...

* * *

ونحن نؤكد لهذا الشاب الكريم أن هذا الروح الطيب الذى ينادى بخير الجماعة ، وينكر الأنانية ، وينزع إلى تعاون روحى عظيم شامل ، كفيل بأن يبلغ هدفه الخاص ، من خلال الهدف العام .

حديث شاب أزهري

يخيل إلى أن الشباب لو كتبوا كما طلبت ، كتابة صادقة صريحة أمينة ، لخرجت بأضخم تشخيص لأمراضنا ، وبخير مرجع لبنـاة الإصلاح إن أرادوا بناء جيل جديد خير من جيلنا ، وبأصدق وصف للقلق الروحي الذي يسيطر على شبابنا .

هذه هي المرة الأولى التي أزج بنفسي فيها في مثل هذه الموضوعات ولي عذري . أنا شاب أزهري ، وهل يليق برجل الدين أن يكتب أو يفكر في غير الموضوعات الدينية ؟.. وهل له من الحرية قسط يكفل له أن يتكلم فيما يحيط به ويراه ؟.. كلا ... له أن يرى فيتعامى ، وأن يسمع فيتصامم ، إنه قد كتب عليه أن يعيش بين الناس غريباً ، وألا يندمج فيهم ، فليس له أن يعيش في صميم الحياة ، فمكانه على هامشها ، ذلك حكم الوقار الذي يضفيه عليه انتسابه إلى الأزهر ويرغمه على الجو المحيط به ونظرة الناس إليه ، فيفرضون عليه الحرمان من كثير مما يبيحونه لأنفسهم ، وإذ أبيح لنفسي للمرة الأولى أن أشترك مع الناس في الكتابة إليك ، فاني سأصدقك الوصف والقول ، وسأعرض مشاكلها ولعلها مشاكل هذا الجيل من شباب الأزهر .

انتسبت إلى الأزهر في الثانية عشرة من عمري ، فعشت بعيداً عن أهلي ، وقاسيت في هذه المرحلة الحرمان منهم على شغفي بهم ، فكان

هذا أول حرمان قاسيته من حياة كلها حرمان ، ومرت سنوات قليلة فتخرج كثير ممن كان يقيم معي من تلاميذ قريتى فى مدارسهم ، وتخرج باقيهم فى سنوات تالية ، وعينوا فى وظائفهم المعدة لأمثالهم ، ولاحظت فروقاً مادية بينى وبين لداتى السابقين ، تطول يدهم ماتقصر عنه يدى ، يلبسون خيراً مما ألبس ، ويطعمون خيراً مما أطعم ، وينعمون بما لاأملك التنعم به ، ورفع الناس مركزهم الأدبى عن مركزى ، فالمقاييس الأدبية فى قرانا تقترن بالمراكز المادية صعوداً وهبوطاً ، فأحسست بالحرمان مرة أخرى وكان قاسياً ، وكان يدفعنى إلى الحنق والسخط أحياناً أنه لايد لى فى هذا الحرمان ، فأنا لم أقصر فى الطريق الذى رسم لى فلم أرسب عاماً ، وكان العيب فى الطريق الذى سلكونى فيه ...

ولعل أشق حرمانى وأدقه هو حرمانى العاطفى ، فلى قلب مشبوب العاطفة أبداً ، فياض الحيوية دائماً ، يدرك الجمال أياً كان لونه جسدياً وروحياً ، ويقدره حق قدره ، ففى الجمال غذاؤه ، وفى الجمال حياته ، ولا حيلة له فى ذلك ، هكذا خلقه الله ... وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وكان يغذى هذه العواطف المشبوبة ميل فطرىّ للأدب ، فقرأت مبكراً فى نهم شديد كثيراً من أمهات الكتب فى اللغة العربية ، وتتبعت النهضة الحديثة ، فقرأت أكثر إنتاج أدبائنا ومترجماتهم ، وأدمنت « السينما والتمثيل » صغيراً ولم أتحرر منهما تماماً إلى اليوم ، وواظبت على قراءة الجرائد والمجلات الأدبية والسياسية ، فكان لاطلاعى هذا أثره فى إلهاب تلك العاطفة الطبيعية .

علقت فى صدر شبابى فتاة وفتاة وفتاة ، كانت العلاقة من ناحيتى

كما توحي بذلك فطرتي وثقافتي وسعة أفقي ، ناراً مشبوبة واضطراباً وحبا عذريا ، وكانت من ناحيتهن بحكم مستوى ثقافتهن نزوات طارئة وملهاة وتسلية ، وشتان بين الفكرتين ، فماتت تلك العلاقات في مهدها ، وجاء دور الزواج ، وكان الأهل هم أصحاب الفكرة والتنفيذ ، وهم سيدفعون المهر فلهم الاختيار ، فاختاروا من القرية الفتاة الوحيدة التي لم أرها قط ولم أحادثها أبداً ، وبنيت بها وحاولت أن أرفعها إلى مستواي وأن أخلقها خلقاً جديداً لتكون غذاء جسدي وروحي ، فاستعصت علي بحكم الجهل والوراثة والبيئة ، والعجيب أنها تعمل — غير عامدة — على الهبوط بي إلى مستواها !.. وأشهد ، وقد انقضى على زواجنا أعوام عدة ، أننا كيوم بدأنا ، لم ينجح أحدنا في مسعاه ولم يفتر النضال ، وأعتقد أنه دائم ما حيينا .

ولقد أنجبت منها ما أشتهي من أبناء ، ولكن ظلت روحي ظمأى وقلبي فارغاً ، وأشد خطر هو إحساسي بهذا الظمأ والفراغ ، إحساس يحوطني من جهاتي جميعاً ولا يكاد يفارقني ، فكثيراً ما ضاقت علي بسببه نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت ، وكم وددت بجدع الأنف لو وفقت إلى سد هذا الفراغ وإرواء هذا الظمأ وإشباع جوعي الروحي ، فقل لي بربك كيف أعالج هذا الحرمان ؟..

والثالثة ياسيدي في حرماني الأكبر من ثمرة جهودي حرمان يتميز عما سبق بأنه من صنع يد الإنسان القادر على ظلم أخيه الإنسان ، فقد قضيت في دراستي عشرين عاماً ماذقت فيها طعم الرسوب قط ، ولكن غرر بنا قانون الأزهر ، ورجاله القائمون على تنفيذ هذا القانون.

قالوا : نريد الصفوة لنخلق منها علماء ممتازين فى موادهم ليدرسوا ماتخصصوا فيه لطلبة الكليات ولنستغنى بهم عمن تستعير من أساتذة الجامعة ووزارة المعارف ، فخدعنا ... وقضينا مدة التخصص نكابد الأهوال ، وقاسينا ماهم أدرى به ، ولولا استماتتنا وصبر أيوب لما تخرجنا أبداً ، فقد كانت العقبات توضع عن عمد فى سبيلنا ، برغم ذلك تخرجنا فعينوا الرعيل الأول والثانى فى الكليات مكانهن الطبيعى الذى أعدوا له ، ثم خرقوا القانون الصادر به مرسوم ملكى ليقذفوا بنا نحن الرعيل الثالث ومن بعده إلى المعاهد مؤقتاً لعام واحد . هكذا قالوا ، وإذا بهم ياسيدى يرشحون للكليات ناســاً غيرنا !.. لقد خرقوا القانون بجرأة وأهدروا حقوقنا ليرفعوا إلى مكاننا الأصهار وذوى النسب وجماعة الوصوليين الذين يجيدون الهتاف والتصفيق والتحزب والتفريق واستكتاب العرائض . أما هؤلاء الصفوة من الشباب ذوى الكفايات والمؤهلات فأمامهم معاهد الأقاليم ينامون فيها النومة الكبرى ، ويقبرون فيها مواهبهم ، ويرين على معلوماتهم صدأ متراكم لانعدام الحاجة إليها ، فهذا خير طريق لإبعادهم عن القاهرة مسرح الحوادث !..

لقد عابونا بالكبرياء والصلف وهم صادقون ، ففينا كبرياء العلم والعزة به ، وهاماتنا مستقيمة لم تنحن بعد ، .. وعابوا علينا شبابنا ، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباباً ؟..

ونحن نعرف طريق الوصول إلى حقوقنا ، بل والطرق الموصلة إلى سلب حق الغير أيضاً . ولكن المعرفة شىء والعمل شىء آخر ، فالمرء الصالح يعرف طرقاً شتى للشر ولكنه لايسلكها ، نعم ليس فى

مقدورنا أن نسلكها لأن بابها وطيء فلا بد للداخل أن يطأطيء رأسه ويطامن من كبريائه ، وما أظننا فاعلين « أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة؟» ذلك ياسيدى حرمانى الأكبر قد ألمعت لك بجانب يسير منه وفيه كفاية.

فهل عندك ياطبيبى شفاء لما أجد ؟.. إن عندى قوة على الإنتاج فى بابى ، وفى استعداد طيب ، ولكن هذا النطاق المضروب حولى من الحرمان يعوقنى ويقيد خطواتى ويجعلنى أعيش لغير ماخلقت له .

* * *

هذا حديث أستاذ من شباب الأزهر ، مملوء فتوة وشباباً وطموحاً وشعوراً بأن الأوضاع تتحيف حظه الكامل فى الحياة ، نسوقه — كما هو — فان فيه مجالا لتفكير المفكرين ، وعلاج المصلحين من رجال الدنيا والدين . . .

مشكله الابن الأكبر

هذه مشكلة الإبن الأكبر فى العائلات المتوسطة الحال . وهى مشكلة عويصـــة بل مأساة من مآسى شبابنا الذى يذهب فى صراع بين عادات الماضى ومقتضيات العصر الحديث . وهى مشكلة كثيرين يطوون الصدور عليها ويسلمون أمرهم للأقدار .

هو ابن أكبر لأسرة متوسطة الحال ، إيرادها فى الشهر لايزيد على عشرين جنيهاً ، وهو إيراد ثابت لايزيد ولا ينقص لأنه إيراد موظف من ضحايا هذه الأيام ... وله من الاخوة سبعة بين ذكور وإناث . وقد جاهد الأب والأم منذ تكونت هذه الأسرة فى تربية الأبناء وتعليمهم تعليما كاملا وضحيا فى سبيل ذلك بالكثير . فلما تخرج ابنهم الأكبر وعين فى وظيفة حكومية بمرتب الدرجة السادسة الفنية وهو معلوم ، كانت الأسرة كلها تتطلع إلى هذا الإيراد الجديد الذى سينقذ السفينة من الغرق . وكانت احتياجات الأسرة قد اشتدت ومطالبها قد ألحت بسبب كبر الأبناء وتطورهم فى مراحل الدراســة وما يتبع هذا التطور من تطور آخر فيما يناسبهم من ملابس وغيرها . وكان الإبن الأكبر عند حسن حظ أسرته به فلم يتأخر عن مساعدتها بكل الوسائل الممكنة وفرحت الأسرة كثيراً عندما نجح مسعاها لنقله إلى نفس المدينة التى يسكنون بها لكى يتوفر من ماله قدر يسد حاجات

البيت المتزايدة . وكان هو مخلصاً فى رغبته فى التضحية من أجل إخوته وكان يفعل هذا فى شىء من الكرم القديم الذى لاحساب فيه . وينظر إلى نفسه كأنه عضو فى نفس الأسرة فقط ولا يفكر مطلقاً فى مستقبله وما يجب عليه نحو نفسه . وأحست الأسرة على مرور الأيام أن ماينفقه الفتى فى البيت قد أصبح جزءاً أساسياً من إيراد البيت .

فلما بدأ الشاب يفكر فى مستقبله ، حاول أن يضع حداً لهذا الوضع الذى أصبح فى نظره شاذاً وظالماً . ولكنه وجد مقـــاومة عنيفة ، لامن والديه ولا من أفراد أسرته فحسب ، بل من طبيعة الحياة القاسية نفسها ، وما يراه بعينه من الإرهاق الشديد الذى يحيط بهم . ولا يعرف هو أكان من حسن حظه أم من سوئه أن وهبه الله ضميراً حياً حساساً سرعان مايخجل ويتراجع عندما يرى احتياجات الإخوة واضحة صارخة فيلقى بكل مالديه ناسياً نفسه ومستقبله وما يجب إعداده له من عدة . وعلى هذا سارت حياته على هذا المنوال . وحتى بعد أن تخرّج ثانى إخوته وثالثهم لم يقل الضغط عليه إلا بقدر يسير ؛ لأنهم لايزالون ينظرون إليه كأخ أكبر ويحملونه بطبيعة مركزه فى الأسرة مسئوليات أضخم ، ويلتمسون للأصغر مختلف الحجج إذا أظهر نحوهم تقصيراً . والأخ الكبير مع ذلك راض عن هذه الحال لأنه لايزال يرى أن الاستغناء عن مساعدته للأسرة ضرب من المحال .

ومرت السنوات وبدأت الأخوات الصغيرات يكبرن وبدأت موجة من الزواج تغمرهن ، ولم يفكر الأخ الأكبر فى أن يسبق أخواته البنات

فى الزواج — كعادتنا الشرقية المعروفة — وكانت مشاريع الزواج هذه تجارب عنيفة مرت بهذه الأسرة وكان الأخ الأكبر فيها أيضاً كبش الفداء. وتوالت السنوات سراعاً دون أن يشعر أنه قد أشرف على الأربعين وأفاق الآن فاذا سن الزواج قد فاتته ، وإذا به يحس أن أسرته قد جنت عليه جناية كبرى أضاعت حياته . دع عنك أنها كانت بريئة من سوء النية فى هذه الفعلة الشنعاء ولكن شبابه قد ضاع ولا يمكن للأيام أن تعود .. وحتى إذا فكر فى الزواج الآن فليس لديه من المال مايعينه على القيام بمشروع كهذا لاسيما إذا كان كصاحبنا ذا كرامة وضمير وإباء وشمم ولا يقبل بحال من الأحوال أن يستغل أزمة الزواج ويرغم أهل عروسه على القيام بمطالب هذا الزواج دون أن يساهم فى ذلك مساهمة تشرفه وترفع من قدره .

وياليته أضاع الزواج فقط ! ! بل لقد أضاع آماله ومثله العليا التى كان يسعى إليها بعد أن تخرج من الجامعة . كان لايريد أن يظل موظفاً بل يود أن يقتصد مبلغاً يساعده على الدخول فى عمل آخر حر ، غير أن ظروفه السابقة حالت بينه وبين ذلك فلصق بوظيفته وتحدد مستقبله تبعاً لذلك هذا التحديد القاسى ... وهو يبكى بقلبه كلما ذكره وذكر آماله الأولى ... ولم يكن يظن أن نواياه الحسنة وضميره الحى ورغبته العالية فى مساعدة أسرته ستورده هذه الموارد المهلكة وتقضى على زهرة حياته وشبابه وآماله هكذا ...

إن والديه قد أخذا — دون قصد — نصيبه فى الحياة ووزعاه على إخوته الآخرين فزادت أنصبتهم جميعاً . وازدهر مستقبلهم ، وتفتحت

أمامهم أبواب الحياة ، وكان ذلك كله على حساب مستقبله هو ... و يقول :
« وإنه لايزال ياسيدى مشدوداً إلى عجلة العائلة ... »

***

وهذه شكوى حارة ، ولكنها جميلة . . . وأى جمال هو أروع من جمال التضحية ؟؟ إن التضحية العائلية هى طابع شرقىّ وتقليد عربىّ . . لكن كلما أمكن تفادى بعض التضحية مع تحقيق الجدوى كان ذلك أكمل ...

إن الحسرة دبت فى أوصال هذه الضحية الإنسانية بعد فوات الأوان ، لا الحسرة على عون أسرته ، ولكن على أن هذا العون كان يستنفد كل موارده حتى لم يستطع تحقيق أدنى آماله فى الحياة .

وفى رأينا أن بيئتنا المنزلية تتحمل أكبر التبعة فى هذه المسألة . فما ينبغى أن يرهق الأبناء إذا نضجوا إرهاقاً يعجزهم عن مد السواعد لنيل ثمار مجهودهم . بل يجب أن يكون لهؤلاء الأبناء مايحصدون ، وأن يكون لآبائهم القادرين من هذا الحصاد مابه الأبناء يتفضلون .

الملاك المجهول . . .

ولد في قرية ريفية من أبوين كستهما الفاقة لباساً من القسوة والخشونة. واجتث ظلام البيئة من نفسيهما مبعث الشفقة ومصدر الحنان ، وعلى الرغم من ذلك فقد علماه الكتابة والقراءة في كتّاب القرية شأن أترابه من أولاد الفقراء . فلما بلغ العاشرة أخرجه والده من الكتاب — وحسبه أنه عرف مبادىء القراءة — فأرسله إلى عاصمة المديرية لاليدخله في إحدى المدارس ، ولكن ليقذف به في خضم الحياة الخشنة رغم نعومة أظفاره ! .

هكذا شاء القدر أن يقضي سني صباه في عاصمة مليئة بالشرور والآثام بعيداً عن رقابة الوالدين ، وأن يقضي كل هذه السنين ممتهناً مهنا حقيرة لقاء قروش معدودات كانت ترسل لهذين الوالدين في نهاية كل شهر . وعلى الرغم من أن دائرة حياته الجديدة هذه كانت ضيقة كثيفة الظلمة إلا أنه قد رأى فيها بعض الأشياء وتكشفت له بعض الأسرار . وماكانت بالأسرار التافهة ، وإنما كانت عظيمة الخطر عميقة الأثر حتى لقد تركت في نفسه مشاعر بعيدة الغور لايمحوها مرّ الأيام ولا كرّ الأعوام . فقد رأى خداع الزوجة الآثمة ولمس غفلة الزوج المجروح ، وأدرك غش كبار التجار ، وشاهد تلاعب ودسائس رجال الأعمال . هنالك سئم الحياة وقد لاحت لعينيه سلسلة من الجرائم الخلقية والنفسية ؛ فهؤلاء الناس يغتاب بعضهم بعضاً ويود كل منهم لو يأكل

لحم أخيه ميتاً وحياً .. كذلك حقد على أبيه أن ألقاه فى هذا الأتون المتقد حقداً ، وغلاً ، ونفاقا ، وآثاماً ، فى غير رحمة ولا شفقة ، فلما صار يافعاً قبض عن أبيه يده وتنكر له ، وبدأ يضرب فى الأرض على غير هدى ، خاضعاً لما تمليه عليه نفسه الشريرة الثائرة على كل وضع اجتماعى وناموس مدنى ، وبينما هو يتخبط هكذا فى دياجير الحياة آنس ناراً فسعى إليها . فلما أدركها وجدها نوراً فأقبل عليه وأخذ يملأ من أشعته السحرية نفسه وروحه فمحت منهما ظلمة الشك والريبة وأضاء بصيرته فشاهد من فضائل الحياة ما كان خافياً . هنالك عرف لذة التضحية وإنكار الذات فى سبيل المثل العليا ..

كان ذلك النور الملائكى منبعثاً من طهارة نفسها وسمو روحها . ولكن من كانت هى ؟!

كانت فى الخامسة عشرة ، مثقفة ثرية على جانب كبير من جمال الخلق والخلق . أما هو فلم يكن إلا ذلك الطريد البائس الذى لا يجد فى هذا العالم على سعته قلباً يأوى إليه ، ولا مالا يتكىء عليه ، ولا غاية يجاهد لإدراكها ويجالد لتحقيقها ...

ورغماً من هذه الفوارق البعيدة المدى فقد وجد الحب سبيله إلى قلبهما مفروشاً بالورود والرياحين ، فسلكه بين صدح الطيور وترتيل الملائكة ، وكان حباً عنيفاً لا تجد المقاومة إليه سبيلا ، كما كان أول حب يهبط قلبه ويأوى إليه فبدل ظلمته نوراً ووحشته شدواً وموسيقى . فركن هذا إلى صدر من الدعة والطمأنينة حنون وأسلم نفسه إلى الراحة والسكون ، وقنع من هذا الفردوس برؤية أزهارها اليانعة والتطلع إلى ثماره الناضجة تلك التى اتقى الله فيها وكان عليها أميناً .

وبعد ثلاث سنوات جاء اليوم الذى أنذر فيه بطرده من جنته . ذلك هو اليوم الذى تزاحم فيه على بابها الخاطبون ، وتوافد عليه الراغبون ، وجلهم ذوو مناصب مرموقة ، أو أموال موفورة ، ولكن أباها — وقد كان رجلا عصرياً — ترك لها حرية الاختيار ، على أن صاحبنا لم يجد الجرأة ليدلى بدلوه، فما كان فى ذلك الحين إلا عاملا فى إحدى المصالح لا يتجاوز دخله جنيهين ونصف جنيه، فآثر الانزواء فى حجرته وانطوى على نفسه . كان التليفون الذى هو عامل له وسيلة اتصالها ، وشارع الكورنيش مسرح لقائهما . فهجر المصلحة وانتدب إلى غيرها وقاطع الكورنيش وجعله على نفسه محرماً . ولكن .. على الرغم من كل هذه الحيطة فقد التقيا، ولأول مرة أنس من نفسه الجرأة فاعترف لها بضآلة مركزه وكشف لها النقاب عن حقيقته ورسم لها صورة صحيحة عن نشأته .. وكم كانت دهشته بالغة وقد تبين له أنها تعرف كل شيء قبل أن تسمع هذا الاعتراف . وقد أوضحت بأنها على الرغم مما سمعت ومما كانت تعرفه قبل أن تسمع فانها تكنّ له كل تقدير وإعجاب ! وأنها لن تتزوج إلا بمن وقع عليه اختيارها وقد اختارت . وتنبأت له بمستقبل ممتاز فيما لو حاول انتشال نفسه مما هى فيه وسما بها مادياً وأدبياً ، وإن والدها قد يبارك زواجهما إذا مابلغ صاحبنا هذا الهدف . فأخذ يسألها فى لهفة عما يجب عليه عمله لإدراك هذه الغاية . قالت له : إن فى استطاعته إدراك مافات إدراكه، فى مقدوره أن يتعلم فالتعليم ليس وقفاً على دوره، وأن يتقدم للامتحان لنيل مؤهلات ترفع من شأنه وتجعله عضواً نافعاً فى مجتمعه . ولقد أسهبت فى وصف الطريقة وكيفية الدراسة . ومن ثمّ افترقا ولم يعد إلى حجرته قبل شراء الكتب

المقررة لشهادة الدراسة الابتدائية وبدأ التحصيل فى حزم وعزم .
وكان أول ماعمله أن كسا نافذة حجرته بورق سميك أسود اللون حتى لايرغم على إطفاء النور كلما دوّت صفارات الإنذار التي لم يكن ينقطع نعيبها . وهكذا مكن لنفسه قضاء الليل فى المذاكرة . كان ذلك فى منتصف عام ١٩٤٠ وقد اشتدت الغارات الجوية شدة غير معهودة أقضت مضاجع السكان وملأت نفوسهم رهبة وفزعاً ولكنه لم يكترث للأمر فقد كان بالمذاكرة مشغولا عما عداها . وفى ذات ليلة أظلمت الأرض وأرعدت السماء وراح سنا برقها يذهب بالأبصار ، وكأنما تفتحت أبواب الجحيم وانطلقت منها الشياطين فكانت السماء تمطر الأرض بصخور من سقر ، والأرض تقذف السماء باللهب والشرر ، فوجفت القلوب وزاغت الأبصار . وليس يدرى متى كفت الطائرات عن إلقاء أثقالها ولا المدافع البحرية والأرضية عن قذف حممها ، فلم يرتد إليه وعيه إلا عندما أشرقت الشمس فاذا به نزيل المستشفى وقعيد العلاج ! !وظل حبيسها نيفاً وأربعين يوماً ، فلما أطلق سراحه توجه من فوره إلى دارها فعلم أنها هاجرت مع أهلها ، ولكن إلى أين ؟ هذا مازال يجهله حتى اليوم ...

ولقد حاول الانطواء على نفسه مرة أخرى ولكنه آثر تحقيق آمالها فيما رسمته له فبدأ ما انقطع ، ولما حل شهر يونية عام ١٩٤٢ دخل الامتحان لأول مرة فى الحياة ووفق فيه توفيقاً عظيما . وفى عام ١٩٤٥ وفق فى نيل شهادة الثقافة العامة مقرر السنوات الأربع ، وفى عام ١٩٤٦ نجح فى امتحان الدور الثانى التوجيهية شعبة الرياضة وحاول الالتحاق بكلية التجارة فلم يوفق ولكنه وفق فى الحصول على وظيفة

فى إحدى الشركات بمكافأة شهرية سخية . فلما كان عام ١٩٤٧ نجح فيما أخفق فيه فى العام الماضى فقد التحق بكلية التجارة . وهكذا شاء القدر أن يتيح لهذا الشريد البائس فيما أخفق فيه الكثيرون من أرباب العز والنعيم . فقد منح الدرجة السابعة بمرتب ١١ جنيهاً عام ١٩٤٧ ، مع أنها لم تمنح لمن هم أقدم منه خدمة ، كذلك منح مكافأة شهرية من الشركة التى يعمل بها قدرها ٨ جنيهات وبذلك أصبح موفور الرزق بفضل الله وبلغ الـكثير من اقتنائه . ولكن وا أسفاه إنه لايستشعر السعادة ولا يعرف الهناءة . فقد تضاعفت حيرته وتعقدت حياته ولم تعد لديه المقدرة على تحمل هذا اللون من الحياة . فقد تبين له أخيراً أنه مرغم على المفاضلة بين عمله فى الشركة وبين الجامعة وأيهما يختار يخصص له وقت الآخر . ذلك أن معظم الدروس يؤدى بعد الظهر . وعمله فى الشركة مقصور على هذا الوقت والاختيار هنا صعب جداً ، فانه محب للعلم ، شغوف به ، وبوده لو قضى العمر مغترفاً من منهله العذب . ولكن لاتنس ما للمادة من سلطان لاسيما على رجل مثله قضى حياته فى بؤس وتشريد وعرف الفاقة ومرارة الحرمان . وثمّ أمر آخر : لقد بلغ الثالثة والثلاثين ولكن من يراه لايقدر له مثل هذه السن لاسيما وقد توجت رأسه تيجان المشيب ، وكان يحنى قناته مابذله من جهود وكفاح :

« فهل ترانى أظل مترقباً عودتها بعد هذى السنين السبع ؟! لقد كنت أوحى إلى نفسى أنها عائدة ، وكانت نفسى تستجيب إلى هذا الإيحاء ولكنها الآن تتمرد وتجمح رغبة فى التحرر من الخيال إلى

دنيا الحقائق ، فهي تهتف دائماً : لعل من تنتظرها قد صارت زوجة وربة أطفال . . .

« والواقع أني وقد اشتعل رأسي شيباً وتقدمت بي السنون أجد نفسي في حاجة إلى من يملأ حياتي الخاوية ، ولكن ألا يعتبر هذا العمل جريمة يعاقب عليها قانون الأخلاق ؟ ألا يكون هذا كفراً بمن صنعتني صنعاً وخلقت مني إنساناً ؟ ! » .

إنه حائر كما ترى بين العلم والمال وفريسة بين قلبه وواجبه نحو نفسه ، ويرجو أن نمد إليه يدنا لنخرجه من الظلمات إلى النور ! !

* * *

ونحن نقول له إن تلك الفتاة التي ضرب الدهر بينها وبينه سبع سنوات قد صارت حلما . لكنها كانت حقيقة واقعة ، إنها الملاك المجهول الذي أرسله إليه الله رحمه به وإحساناً . فهدته سواء السبيل . ووجهت خطاه . ونفخت فيه من روحها فخلقته خلقاً آخر . ثم مضت لطيتها فطريقها غير طريقه وحياتها غير حياته ، ووسطها غير وسطه .. وهي الآن لم تعد إلا ذكرى ، يستحيل عليه نسيانها لأنها جزء من صميمه . لكن ليس له أن يجعلها همه كله ، ولاجله . فهناك ساحات فسيحة مادام مكافحاً طموحاً .. وستظل ذكرى ملاكه الحارس كعمود من النور يسير أمامه ويهديه دائماً . فليتعلم إذن ، وليزدد من العلم نهلا ، فهو الري الذي لاتشبع الروح منه .. وليملأ فراغه بالتقية الصالحة يختارها فتملأ بيته ، حتى يؤدي لوطنه حقه من العلم النافع والبيت الهانيء والولد الصالح ...

حديث شابّ شقيّ

هذا حديث «شاب من الجيل الحائر» يفيض حرارة وصراحة ، وهـــذا الحديث تسجيل أمين لروح أمين بهرته أضواء المدينـــة في الليل فاندفع كالأعشى ... وهو وإن تعثّر أو كبا فنحن نؤكد له أن من كانت هذه الروح روحه فانه يستطيع أن ينهض من كبوته وأن يقال عثرته وأن يتقدم لكيما يفوز بمصير أفضل وينفع بلاده بمواهبه .

ما أشد تأثير روايته إذ جاء يبوح لنا بأن قد آن أوان الإفضاء ، فيقول :

« لقد جئت باستفتائك في حينه ، لأن شباب العصر وإن الحّوا في المرح ، وضجوا بالضحك ، وهزجوا في نشوة الخمر بأغانيّ اللذة والمتاع ، فهم كأمواج البحر يتناثر على سطحها الزبد المشرق ، وفي أعماقها يكمن الظلام . يضطرب الفتى بين رفاقه كما يضطربون ، ويضحك معهم حتى تخال أفراح الأولى والآخرة قد تفجرت في مشاعره ، ولكن ما إن يخلو إلى نفسه حتى يغضن وجهه التفكير في مسألة أو مسائل ، وينوء بكاهله ما يحمل من عبء أو أعباء . كل منهم يتعذب وحده ولا يشكو ، ويتألم ولا يجد لألمه متنفساً أو عزاء ، ولن ينفضون آلامهم وكلهم فيها إخوة ، وإن كان لكل همّ مذاق ؟!

جئت في حينك لنسكب على يديك دموعاً منعنا الخجل أو نحوه

أن نطلع عليها إنساناً ، وليس أقسى من هذا الحديث على النفس ولا أشق منه على الكبرياء ، ولكن الذى يخفف حدته أنك لاتعرفنى ، ولن تعرفنى . حتى ولو التقينا فلن ترى فى أساريرى إلا المرح والصفاء.. صفاء الزبد على صفحة الأمواج.

كانت أسرتى إحدى مئات الأسر الفقيرة التى لاتختلف فى جوهرها : بضعة من الأطفال الصغار أو الكبار تعمل من أجلهم يد يسيل العرق منها نهراً ، ولا تقبض من جناه إلا نزراً .. لهم — كأمثالهم — سبل فى الحياة مرسومة متشابهة وإن كانت شتى ، لاتلبث أن تنتهى بهم إلى أن يكونوا سواعد تشد إلى المحراث مع البهائم ، أو تدار فى المصنع مع الآلات ، أو تساق إلى مراعى البشرية مع الأنعام !

وشاء القدر أن أكون شعاعاً تنكب الطريق المستقيم بين الغيوم ، إذ نصح ناظر المدرسة الأولية أبى أن يبعث بى إلى مدرسة ابتدائية لأنه لمس فى شيئاً من الذكاء ، فرحبت أمى بالفكرة على جرأتها.. وتردد أبى طويلا قبل أن يوافق وظل يقتطع من أجره الضئيل مصروفات المدرسة ، حتى نلت الشهادة الابتدائية بتفوق وهب لى مجانية التعليم الثانوى ، فكتبت طلب دخول المدرسة الثانوية بغير علم أبى ، وسرعان ماجاء رد المدرسة بقبولى ، فباعت أمى أول قطعة من حليها البسيطة ثمناً لأول «بدلة» جديدة لبستها .

ومرت خمس سنين وأنا أقرأ إلى جانب الكتب المدرسية أضعافها من كتب الأدب ، خرجت منها بمثل عليا تأصلت جذورها فى أغوار ضميرى ، فأشرفت من أرضى الفقيرة المجدبة على سماء رائعة من المعانى

(فيها تيار الملائكة يعب ويجرى) .. وحانت نهاية المرحلة الدراسية ، وكنت أريد أن أتقدم فى مجال العلم غير عابىء بما يكبل خطواتى من أغلال ، فنجحت فى امتحان إضافى ضمن لى مجانية الجامعة .. وكنت أتمنى أن أكمل دراستى فى كلية الآداب ، لكنى رأيت بؤس قومى وسوء حالهم ، فكرهت الفقر وخشيته ، فآثرت أن تكون كلية الطب نهاية مطافى ، برغم ميولى ونزعاتى .

وبدأت صفحة جديدة من كتاب أيامى ، وأعقبتها صفحات أخرى .. لو أردت عنواناً لها لما وجدت أبلغ من كلمة الألم ، وإليك بعض سطورها الشقية :

أتيت القاهرة ، وكنت أحسب أن حياتى فيها ستكون صلة لحياتى هناك ، لكنها أبت إلا أن تضيف إلى الكأس المرة ضرباً من السم يقتل ضحاياه قتلا بطيئاً . أبت إلا أن تجعل المادة حلمى بالليل وهمى بالنهار ، وإلا أن ألجأ إلى رفاقى ، مستديناً ولم تمض أيام على رد ما اقترضته من قبل من المال .. عشرون يوماً من الشهر تمر عل هذه الحال ، حتى لايكاد مرتبى يكفى أجرة المسكن وجملة الديون ! ولك أن تتصور مشاعرى ..

كنت أشعر — فى أول الأمر — بالخجل الغامر يدفع كل ذرة من دمى إلى وجهى ، كلما مددت يدى إلى أحد من رفاقى ، ولكن هذا الخجل كان يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى بات الاقتراض مسألة آلية من مسائل عيشى ، وخشيت أن تكون دوافع الحاجة قد تركتنى بلا كبرياء وكانت كبريائى كل ماتزخر به نفسى من كنوز !

وأفتح الكتاب أمامى ، فتتراقص على صفحاته صور مضطربة معربدة ، هى انعكاس لمشاعرى على كل مايحيط بى ، وصدى لموكب متدافع من الملل والثورة ، والقلق والاضطراب.. ويستحيل قلقى أحياناً إلى خوف رهيب من الواقع ، ومن المستقبل ، ومن الأقدار ، ومن الله !. فأحاول أن أهرب من دنيا نفسى القاتمة ، إلى عالم أنسج خيالاته من أمانى وأحلامى ، وأنغم فيه خواطرى شعراً رُمت أن يسعدنى ، فلفنى فى طيات أكفانى ..

ولم أجد مايجذبنى فى كتاب ، ولم آنس عزاء فى صديق أو سلوة فى حبيب .. ففررت إلى السينما أنسى فى غمرات قصصها وخزات الهواجس فى أعصابى ، وهمزات الأحزان فى يقينى .. وكنت من قبل لاأعرف للنجاح فى الامتحان لذة من طول ما ألفته ، ولكنى عرفتها الآن لما ذقت مرارة الخيبة وزايلتنى ثقتى بنفسى وكانت كالإيمان .

وبدأت مشكلة جديدة تضاف إلى متاعبى المادية . مشكلة معنوية زادت ثورتى على الوجود ، كأنها لفتة من القـــدر إلى أن ظلمت نفسى يوم تنكبت الطريق المرسوم لأمثالى ، وكنت فوضى فى قانون المجتمع !.. وجدت أن شقة هائلة تحول بين منطق أسرتى ومنطقى ، وأن أبى — وإن علمته الأيام — لم يحاول أن يتفق معى فى رأى ، ولا أنا حاولت أن أتبعه فى سبيل . كلانا يحس أن « شيئاً » يحول دون تفاهمنا ، وهذا الشىء سرّ مانجم بيننا من نفور بلغ فى كثير من الأحيان درجة الشقاق ، إننى أتألم من أجل هذا الرجل الذى ضحى من أجلى

يكثر من سعادته ، فجنى بذلك على ما يؤلف بين الآباء والأبناء من صفـــاء !..

ووالدتى أيضاً .. لم تحاول يوماً أن تفهمنى (ولن تستطيع لو فعلت) فكنت أعيش معها كالغريب أشقاه صمته وانطواؤه على نفسه .

وإخوتى ، أرى سوء حالهم ، فأحس أننى استأثرت ببعض حقوقهم فى العلم واللباس والغذاء .. وأعتقد أننى مسئول عن سعادتهم إن توفى أبى ولما أكمل دراستى ، وهذه الفكرة تساورنى أحياناً فأجفل من المصير إن جرى بذلك القضاء ..

ومشكلة أخرى تلهب مشاعرى وتحرق أعصابى ، تلك هى الظمأ الروحى العنيف .. أردت المرأة معنى سامياً من معانى الروح ، وحننت إلى الحب كمزاج من الرقة والفهم والتجاوب والحنان ، تلك المعانى التى افتقدتها فى صباى عبثاً ، واختزنت عواطفى حتى ضاق بها حسى ، وحاولت أن أفتش عن تلك التى أنفق عليها .. خزائنى !.. فلم أجد وسيلة لبحث ولا فرصة لاتصال .. ولكن أضواء الليل فى العاصمة أبانت المرأة لعينى فى صورة أخرى ، وأخذ الإغراء الجنسى يخنقنى فى الشارع حيثما سرت ، وفى السينما ، وفى همسات بعض الرفاق .. وكان الإغراء عنيفاً ، والحرمان لاذعاً ، فاستسلمت للفتنة الحمراء فى حذر واستخذاء .. ثم أفاق ضميرى مذعوراً ، فراعته أطلال ومثل تهدمت ، وعفة كانت مناراً للحيارى ، فبكى .. ولكن بعد فوات الأوان

وأردت أن أتوب وأحور إلى دنياى المعطرة المطهرة ، لكن طعم الفاكهة المحرمة يصرخ فى دمى وعظامى ، والحرمان يزلزل كيانى ،

ويصيبني بمثل الجنون فى أحايين ، فلا أجد مندوحة من أن .. من أن أداوى جنوناً بجنون !..

ثم أعد دفاعاً ألتمس به رحمة ضميرى ، فيرفضه ، ويحكم على بالعذاب ، وما أقسى الضمير من جلاد ! هو سر شقائى ، ولكنه عزائى ، لأنه دليل على أنى مازلت مؤمناً بالله ...

سيدى الأستاذ الصاوى

هذا اعتراف لم أصرح به من قبل لأحد ، ولن أجد الشجاعة الكافية — أو سمها ماشئت — لأصرح به لإنسان من بعد ، ولم يهون أثره على كبريائى إلا أنى أنقل به صورة لشقاء أفراد فى هذا الجيل ، ألفوا أنفسهم فى السفح المظلم الهاوى ، فأرادوا أن يرتادوا قمة الإنسانية ، فتعثروا فى الضباب ، وأدمت أقدامهم صخور الطريق ...

الجيل كما يراه معلم

هذا بحث قيم من الأستاذ « ك. د » بالمنصورة يبسط فيه رأيه فى شباب هذا الجيل ، ذاكراً مايحيط به من تربية وبيئة وثقافة ، هى مقوّمات هذا الشباب ، ولكونه مدرساً يتعهد الشباب من صغره ويقيم اعوجاجه ، ويرمق أماله وطموحه ، نسوق مايراه :

الشباب المصرى مجموعة عقد نفسية ، حسب أية واحدة منها . أن تكون عقبة فى نهوض الشخصية ، فى البيت صدمات ، وفى الأسرة صدمات ، فى المدرسة صدمات ، وفى الحياة العاطفية صدمات ، وفى أمانى الحياة العملية ، وفى كل شىء يحيط بالشباب المصرى صدمات كثيرة متعددة .

أما فى الأسرة ، فما أحسب شاباً مصرياً قد أشرفت أسرته على توجيهه وتنشئته على نحو يجعل منه رجلا كاملا ينفع نفسه ووطنه . فالأسرة المصرية كبيرها وصغيرها ، غنيها وفقيرها لاتخرج إما عن تدليل الطفل وتشجيعه على اللهو والفساد بدعوى الحرية ، أو عن إهماله وإغفاله لينشأ كيفما شاءت له الظروف أن ينشأ ، السبب فى الأول انصراف الأسرة الراقية عن مراقبة الابن واشتغال كل من الأبوين بذاته ، وفى الثانية كدح الأبوين وجهادهما من أجله وغيره ، والنتيجة فى الحالتين أن ينشأ الطفل ولا رقيب عليه فى البيت ، وأن يكون بيته وأبواه أجهل

الناس به وأقلهم علما بسلوكه، وقلما يتحد أبوان ويتناسيان شخصيتهما حتى فى أخطر أمورهما فى تربية طفلهما العزيز، وهيهات أن يستطيع الأب محاسبة ابنه أو ابنته لكثرة ماتتدخل الأم لصلح – أو قل لفساد – أحدهما، والطفل يستفيد بانقسام السلطة المنزلية على هـذا النحو آخذاً سمته نحو الهاوية.

والمدرسة ... إن مدارسنا اليوم أمرها عجب لو جاب لها ملائكة لتمردوا وأصبحوا بعد حين شياطين، وماذا تريد من طفل غر حديث السن، يرى وهو فى السنة الأولى أنداده الكبار فى السنة الخامسة لايحترمون أساتذتهم، ويتمردون على آبائهم، ويتبجحون فى أنظارهم، ويتحدثون بذلك كله مفتخرين متظاهرين. إن روح العبث والفوضى لتسرى فى ناشئة هذا الجيل سريان البرق، على نحو ترى معه أنهم قلما يصلحون لمستقبل كريم. وأن من الخير – إذا سار التعليم عندنا على طريقة اليوم – أن نبقى على شبابنا جاهلا مع الأخلاق الكريمة والتقاليد الموروثة، أولى من تحشره فى بيئة لنخرجه فيها بلا علم ولا أخلاق!..

والناظر... ماذا يستطيع ناظر مدرسة كبيرة يزيد تلامذتها على الألف عداً، بين مطالب تلاميذه العابثة التى وصفها، وبين وزارة المعارف التى جردته من السلطة كأنها تريده على أن يجاهد بغير سلاح. فلا هو بمستطيع أن يكبح جماح الشباب الطائش ولا هو بقادر أن يتخذ من الإجراءات مايحفظ على العلم كرامته، وعلى المدرسة هيبتها؟!

والمدرسة هى مسرح الشباب الذى عليه تتمثل بشكل سافر نزعاتهم المختلفة ، فيها يظهر أثر بيئة البيت والأسرة ، وفيها تتمثل الحياة الاجتماعية بصالحها وطالحها . وفيها تتجلى الحياة السياسية القلقة المضطربة ، التى يرى الشبان أنه لا بد من تعلقهم بالأحزاب واشتغالهم بالسياسة لكى يظفروا — على الأقل — بلذة العودة إلى المدرسة بعد فصلهم منها لأى سبب ، ولكى يتصلوا بالشخصيات التى يظنونها كبيرة لمجرد أسمائها الضخمة الطنانة . وفيها تتمثل الحياة الجنسية بما فيها من تعقد ومشاكل هى من هذا كله فى الصميم .

والتربية الجنسية عندنا — إن كان ثمة مايمكن أن نسميه التربية الجنسية أصلا — تسير على نحو عجيب ، فالأبوان يحظران على الطفل أن يشير إلى شىء مما يتعلق بالحياة الجنسية (أحسن عيب !) مع أن هذه الناحية هى من شخصية الطفل المستقبلة فى الصميم ؛ والنتيجة أن يشب الطفل جاهلا « بهذا العيب » حتى إذا أتى دور المراهقة ، وهو الدور الذى يحتم عليهم عملهم أن يواجهوا الشبان فيه لسوء الحظ وقف الشاب على أسرار المسألة ، فانفجر مرة واحدة ، واندفع فى تيار الغواية ، يساعده السابقون ذوو الخبرة من رفاق السوء ، فلا تسمع من الشباب المصرى طوال هذه المرحلة إلا مايدلك على أن تفكيرهم وحسهم وسمعهم وبصرهم منصرف كله إلى الجنس على نحو تتبين معه ضرورة التوجيه الجنسى ، لكى تستطيع أن تبقى على اتجاه الشاب نحو العمل المنتج .

ولو أن فى نظمنا الاجتماعية وحياة أسرنا مايعوض الشاب عن هذا

الحرمان شيئاً . كأن توجهه نحو الموسيقى أو الرياضة أو غير ذلك من الفنون مايعلو بغرائزه ويسمو باتجاهه ، لكان خيراً ، ولكن الشاب غالباً ما ينحرف إلى العادات السيئة ، واقتناء الصور الشاذة فتنحل شخصيته ، ويلتوى اتجاهه ، إما إلى الغواية والفساد إن كان جريئاً ، أو إلى الضعف والخمول والتدين والمثالية إن كان دون ذلك جرأة وقدرة على الإنفاق . وكلاهما شر وبيل .

فاذا تجاوز الشاب هذا الطور صدمته فى الحياة العملية حقيقة رائعة تلك هى أنه لايستطيع أن ينال بعض حقه إلا بالوساطة . فنحن فى بيئة من مميزاتها عدم الاكتراث لإضاعة الكفايات ، وقبر المواهب وتخطى المستحقين فى سبيل المطامع والشهوات ، من أجل هذا — ولهذا فى نفوس الشبان أثر بليغ — تتضاءل معه القيم الإنسانية والمعانى الجميلة والأخلاق السامية ، التى تربط الفرد بمجتمعه وتوثق أواصر الحب لوطنه .

والنتيجة لهذا أننا لانرى أحداً يرضى عن عمله ، وبالتالى لانجد من يخلص فى عمله ، لأنه يحس الغبن منذ البدء باختياره لعملٍ دون كفايته ، ولحرمانه من أن يخدم وطنه عن الطريق الذى أراد ! !

ومن هنا تنحدر المعايير الخلقية ، وتحصل الدولة على عمل أقل كثيراً مما كانت تحصل عليه لو أن أمورها تسير على قواعد مطردة ثابتة لااستثناء فيها لواحد من الناس ! !

ألست ترى فى مصر — مما لاتراه فى شعب آخر — أننا نكثر من ذكر شعبنا وحكوماتنا وإخواننا ومواطنينا بشىء من الاحتقار ،

والازدراء ، ونلصق بهم أخطر الصفات ، ونتمنى لهم أسوأ الأماني ، كأن لم يكن المتكلم واحداً منهم ، سوف يصيبه من العار مايصيبهم ؟ ولكنها روح عدم الرضا في قرارة النفس تتصاعد على طرف اللسان ، ولها مدلولها البليغ .

والخطر الداهم أن يتشرب الروح السياسي للشباب المصري بروح التعصب الأعمى لهيئة بعينها ، والانتصار لها مع الكره البغيض لمـــا عداها مهما أحسن عملا ، إلى درجة التصارع والتحرش والقتال الأهلي ، كأن لم نكن أبناء وطن واحد ، وكأن لم تكن غاية الجميع واحدة !

وذلك الشقاق المتأصل في جميع نواحي الحياة ، والذي بذر المستعمر بذوره ، قد آتى أكله في كل شيء ، فجنى العدو ثماره شهية ، وستجنى البلاد منه المر والصاب ، حتى إننا لنعود به إلى الطائفية التي تخلصت منها الإنســـانية المعذبة من دهور ، فما نزال كلما جد جديد نقحم الخلافات الطائفية والدينية إلى جانب الأمور الحزبية ؛ وفي هذا من فساد الحكم وقتل حرية الرأي ، مايرجع بنا إلى الوراء ، مما تتحمل الأحزاب السياسية والجماعات الدينية تبعته ومسئوليته الجسيمة .

وليس هذا وحده مايعانيه المواطن المصري ، بل هذه كبريات المسائل التي تقلق بال الشباب . وثمت أمور أخرى كثيرة لها خطرها وجسامتها ، فالمصري غريب في بلده ، محروم من خيرات وطنه ، يتطلع في ذلة وانكسار إلى استغلال الأجنبي وقليل من الشركات المصرية الأجنبية لموارد قوته ، والإثراء على حساب رزقه واختطاف

مافى يده — بل مافى فمه — لاستزادة دخلهم العريض ، مما نشأ عنه هبوط المستوى المعيشى . والحالة الاجتماعية فى البلاد كما نرى .

ويقول : يفجع المواطن المصرى أن يعاشر مواطنين جهالا ، لايحسنون الأدب أو المعاملة ، وهو لايستطيع لسوء الحظ أن يريح نفسه من عنائهم ، فهو مضطر إلى الاحتكاك بهم والتعرض لهم فى كل ناحية من حياته ، مضطر كذلك لأن يعذرهم إذ لاذنب لهم — فلو قد قامت الدولة على تعليمهم لكان فيهم من يفوقه علما وثقافة وأدباً وخلقاً ! .

كثير مما تقع عليه عين المواطن المصرى ، أو ينقله إليه سمعه ، مؤذ لكرامته ، مشين لعزته ، جارح لشعوره ، ملبس إياه ثوب الخجل والانكماش ، خصوصاً إذا اشترك معه فى رؤية الأمر أو سمعه أجنبى عن مصر ، ومع هذا نلوم الأجنبى ونؤاخذه إذا تحدث بما رأى أو سمع — وأولى بنا أن نوارى سوءاتنا . ونصلح عوراتنا حتى لاتقع عليها عيون الأجانب الذين يعذرهم حين لايحملون لنا مانريد من الاحترام ، فما ينبغى أن نعصب عيونهم ، ونسد آذانهم وأنوفهم ، وهم أحرار فى أن يروا ويسمعوا وينقدوا ...

جحود العاطفة . . ! !

يعرض لنا ا. ع . ا. ن. صفحة للعصامية والجهاد المتألم الصامت:
فقد نشأ يتيم الأبوين ، ولما يتم مرحلة التعليم الابتدائى بعد ، وقد ترك والده له ولأخيه الأصغر ثروة لابأس بها ، كانت كفيلة بأن تصل بهم إلى سن الرشد — إذا مابوشرت بأمانة — وهم فى دعة من العيش ، وراحة البال ، بل وكان يتوفر لهم منها فائض كبير ينفعهم فى معترك الحياة ومقتبل الأيام ، ولكن شاء سوء الحظ العاثر الذى حرمهم من عطف الأبوين أن يمعن فى قسوته فساق لهم رجلا من الأعمام ظاهر الورع ، أقيم وصياً عليهم ، ويبدو أن المال «السائب» يغرى حقيقة بالغواية ، إذ سرعان ما انقلب الشيخ التقى الورع إلى شيطان ماكر مريد ، فبدّد من أموالهم جميع مايسمى فى عرف القانون «الأموال المنقولة » . ثم ولى وجهه شطر الأموال الثابتة فأخذ يستصدر القرار تلو القرار ببيع بعض عقاراتهم وفاءاً لديون مزعومة ، وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن الشيطان قد تجسد فى شخصه فصور له أن يمنع عنهم نفقاتهم ، ويمسك عنهم مصروفات مدارسهم ، فكان على جدتهم العجوز أن تستدين من هنا وهناك لتسد حاجاتهم إلى أن قيض الله لهم سيدة كريمة من أقاربهم جاهدت حتى عزلت الوصى الآثم ، وصانت بذلك البقية الباقية من ثروتهم ، وإن كانت قد أصبحت مثقلة بالديون .

كان لابد من تصوير هذه الحالة الاجتماعية ، لتروا على أضوائها في أي جو كانوا يعيشون ، فقد كانوا أثرياء باسمهم وثروتهم ، فقراء في حياتهم ومعيشتهم . وكانت الجدة العجوز تكافح في سبيلهم ، ويعلم الله كم مرت بهم ليال من الضيق والعوز ، وكم مرت بهم ساعات من الذل والإحراج ، عندما كانوا يطردونه وأخاه في المدرسة بسبب عدم سداد المصروفات ، بينما الشيخ القروى يرفل وأولاده في بحبوحة السعادة وبلهنية العيش ، وتنساب من بين أيديهم الأموال بلا رقيب أو حسيب .

فقد كان دائماً فتى طموحاً بارزاً بين أقرانه متفوقاً عليهم في جميع النواحي العلمية والأدبية بالمدرسة ، فتصوروا كم كان قاسياً وعزيزاً على نفسه أن تجرح كبرياءه بين آن وآخر بطرده من المدرسة بسبب عجزه عن سداد المصروفات ، لدرجة أن زميلا له — سامحه الله — قد جعل من ذلك مادة للنيل منه بأن صرح مرة بأنه عالج كلبه بالأمس بخمسة جنيهات تكفي لسداد قسط بعضهم ! ! » إنها لترن في أذنه بعد خمسة عشر عاماً ، رغم تغير الأحوال ، واختلاف الظروف .

وأخيراً أتم دراسته الثانوية بعد كفاح مضن ، فبدأت مشكلته الكبرى ، وهي كيف السبيل إلى تحقيق أمنيته القديمة باتمام دراسته القانونية ليصبح رجلا بارزاً في وطنه كما كان دائماً بارزاً بين أقرانه — لقد كان أمامه الطريق وعراً لأنه يعوزه المال ، فنصح له بعض الأصدقاء بالاكتفاء «بالبكالوريا» والتوظف بها ، ولكن النفس الطموح ، لم تكن لتقبل التردد ، أو النكوص ، فأعرض عن نصائحهم واستدان رسوم

القيد الجامعية والتحق فعلا بكلية الحقوق وكان طبيعياً أن ينجح ، كما كان طبيعياً أيضاً أن تثار مشكلة المال من جديد عند ابتداء العام الدراسى . فسأل نفسه عن كيفية التدبر فى توفير القسط المطلوب ، ولكن لم تطل حيرته كثيراً إذ وفرت عليه الكلية ذلك بأن قررت فصله نهائياً لعدم سداد الرسوم وردت إليه أوراقه !

وهنا يعود الفارس المغوار مطأطىء الرأس ، كسير القلب إلى ناصحيه الأولين فيقبل الوظيفة الحكومية المتواضعة التى أمكنهم تدبيرها له بعد إذلالهم له وامتهانهم لكرامته .

ودفن نفسه فى عمله ، وحاول أن يعيش بلا أمل ، ويحيا بلا هدف ، مجارياً فى ذلك الوسط الميكانيكى لنفسية زملائه الموظفين ! ! ولكن نفسه كانت نفوراً من هذا الجو ، واستعصى عليه نسيان أمانى الطفولة وأحلام الشباب ، ونجاح سنة موفقة ، فى الجامعة فقرر فى نفسه أمراً ، وبدأ بأن حرم نفسه من متعة الشباب ومباهجه ، وعالج إدارة أمواله بنفسه ، حتى أمكنه سداد البقية الباقية من ديونهم ، وتوفير بعض المال الذى يتيح له فرصة العودة لاستئناف دراسته الجامعية ، بعد أن هجر الوظيفة لمن خلقوا لاحتمال ذلها وآليتها ، ولكن يشاء الحظ العاثر إلا أن يلازمه ، فيأبى عميد الكلية قيده بدون سبب اللهم إلا تنفيذ السياسة وقتئذ بالحد من توسيع التعليم بالكلية إلى أقل عدد ممكن ، وعبثاً حاول أن يشكو إلى الجهات العليا ، والوزراء المختصين ، كما أنه ضاعت وساطات بعض أساتذته دون جدوى لاصطدامها جميعاً بتشبث العميد بموقفه . فكان أن تولاه اليأس والقنوط ، وعاد إلى

أحضان الوظيفة برماً بالظلم ، ساخطاً على الحياة ، ولكن ماكان يأسه هذا ليلازمه كثيراً ، فما كان أبداً ليستسلم إليه ، أو يعترف بالهزيمة ، وهو الذى طالما حطم العقبات ، وذلل الصعوبات فاعتزم أن يحاول التحايل على العميد ومواجهته بالأمر الواقع بأن التحق رسمياً بجامعة فاروق « كمستجد » ثم يطلب تحويله إلى مصر ، فلا يسعه إلا أن يقبله. وفعلا نفذ الخطة بصعوبة ، ولكن كان العميد الفاضل له بالمرصاد فقبل جميع المحولين ، ورفض أوراقه من دونها فأعيدت إلى الاسكندرية وكان عليه أن يختار بين أمرين أحلاهما مرّ : فإما أن يترك أهله وعشيرته ، وهو الذى لم يغترب عن بلده ليلة واحدة ، ويرحل إلى الاسكندرية لإتمام دراسته ، وإما أن يطوى نهائياً آماله ومطامحه ، وعد الأيام انتظاراً لأول الشهر لصرف المرتب ! !

وطبعاً لم يكن ليتردد طويلا ، فقد اختار الطريق الأول المجهول رغم وعورته وخطورته فاتهمه الجميع بالجنون وتوقع له المتفائلون نسبياً منهم فشلا يسير بذكره الركبان — ولكنه مضى لايلوى على شىء ، فطلب نقله مصلحياً إلى الاسكندرية ، وهناك لقى من رؤسائه الرجعيين الأمين من ضروب التعسف والاستبداد مالا يخطر ببال إنسان ، فقد افتنوّا فى معاكسته وشغلوه صباحاً ومساء ، وحرموه من الإجازات لتأدية امتحاناته الجامعية ، كل ذلك ليحملوه على ترك دراسته ، ولكن ماكانت معاكساتهم إلا لتشحذ عزيمته ، وتقوى من همته ، فواصل ليله بنهاره حتى بلغ المرحلة النهائية التى يقف خلالها الآن ناظراً إلى المستقبل بنظرة ثقة واطمئنان ، نعم فقد تحدى الأيام ،

وهيهات أن تغلبه الخطوب أو تقعده العقبات ! ! .

وقد كان يفضل أن ينهى قصته عند هذا الحد ، فلا يتعرض للناحية العاطفية ، من حياته ولكن لكى يكون اعترافه صريحا أميناً ، فهو يشير إلى هذه الناحية بتحفظ شديد نظراً لأنها تمس أشخاصاً لازالت لهم أدواراً على مسرح الحياة ، ويخشى أن يصيبهم ضرر بالغ لو أسهب فى التفصيل . فمن نوع حياته القاسية التى كان يحياها ، ندرك أى نوع من الشبان يكون ، فقد كان شخصاً نقىّ السريرة ، ناصع الصحيفة ، لم يعرف الطيش والنزوات طريقهما إلى نفسه ، فقد نشأ طفلا كبيراً كما قدمنا ، فكان طبيعياً أنه ادخر عاطفته الدافقة ، وحنانه البنوى الذى كبته فى نفسه منذ وفاة والديه ، ادّخر كل ذلك لتلك التى ستقاسمه حياته فى المستقبل ، وكان يراقب عن كثب إحدى قريباته ، واقتنع أنها فتاة أحلامه ، واستقر رأيه على طلب يدها ، ولكنها أرجأت ذلك لحين الفراغ من دراسته ، وكان عفيفاً معها فلم يصارحها بعاطفته ، وإن كانت عيناه وعيناها كثيراً ماتفضحان من أمرهما ما استتر ، وتتناجيان بما حال دونه الحياء والخفر .. وكان والداها يشعران بما بينهما فيباركان علاقتهما . بل وكثيراً ما حاولوا استدراجه إلى التصريح بأى شيء ، فكان دائماً يرجيء الأمر إلى الوقت المناسب له ، حتى إذا جاء ذلك الوقت الذى يرجوه وذهب ليطلب يدها ، فوجيء بأن آخر قد سبقه فى نفس اليوم لهذا الغرض ، فوسط قريبة لهم لها احترامها بينهم ، ولكن يشاء سوء الطالع مرة أخرى أن يلحق به فترى الوسيطة أنه أجدر بابنتها من الأولى ، فأوقعت بينه وبين أهل

فتاته لدرجة أنه قرر حذف اسمها نهائياً من ذاكرته ، وكان لهماأراد كما كان للوسيطة وابنتها — وهي فى مكانة اجتماعية أرقى من الأولى — كان لها ماأرادت من إيقاعه فى حبائلها ، فقرر أن ينتقم لكبريائه المجروح ، بأن خطب الفتاة الثانية وسط مناسبات معينة . خطب هذه الفتاة ، وما أحبها لحظة ، ولكنه إزاء ما أظهرت له من تفان وإخلاص وتطرف فى المحبة ، راض نفسه على مبادلتها وداً بود ، وعاطفة بعاطفة ، فنسى كل شيءسواها ، وجاهد لإسعادها ماوسعت يداه ، بل وضاعف من جهوده ومثابرته لكى يصل سريعاً إلى هدفه المنشود باتمام تعليمه ، فيبنى بها ويحقق لها السعادة مايعوض به شقاء العمر وذل الأيام ، ولكنها كانت فتاة تعسة سيئة الحظ ، جنت عليها المقادير بقسوة ، فكانت مصدر متاعب دائمة له ، وازدادت بمرور الأيام مفاجآتها ومسرحياتها ، لدرجة كادت تودى بهدوء معيشته التى يحياها كراهب ناسك ، فكان عليه أن يختار بينها وبين دراسته التى قاسى فى سبيلها ماقاسى ، وطبعاً لم يكن هناك مجال للتردد ، وسرعان ماأتاحت له الفرصة بحماقة كبرى ارتكبها فتخلص منها نهائياً بعد مآس وأزمات لاداعى لذكرها ، وقد خرج من هذا بعقيدة راسخة ، وهو أن النساء نقمة ، وأن المرأة مخلوق متعب وخادع ، يجدر بنا ألا نمنحه ثقتنا مهما أبداه لنا من إخلاص زائف وحب كاذب ، بل يقول إنه أصبح يسخر منا نحن معشر الكتاب الاجتماعيين عندما نكتب عن الحب ، إذ أنه اكتشف أن كلمة الحب هذه هى أكبر خدعة فى التاريخ ، وأن الإنسان لو استطاع صبغ الحب بالصبغة المادية ، كما يحب أكلة

شهية يحصل عليها مثلا لشبع حاجته ولما عاد بحاجة إلى أن يغالط نفسه بأنه يشتهى هذه الأكلة مرة أخرى ! !

هكذا نجده الآن شخصاً واقعياً ، يسخر من ماضيه ، ويتنكر لاستقامته ، ماضياً فى جهاده ، بلا قلب أو عاطفة ، نحو المجد ، نحو الأمل الباسم الضاحك ! !

* * *

لكننا نحب أن نلفت نظره إلى أنه مامن سبيل إلى المجد وتحقيق الأمل الباسم إلا عن طريق الإيمان ، والقلب ، والعاطفة . . وهو إذا كفر بهذا كله كفر بالحياة نفسها وأنكر معنى الوجود . فليقلع عن سوء الظن والإسراف فى الاتهام بالحق وبالباطل ، وليدعه من هذا البرم الظاهر من كل ما حوله ، فإنه بهذا الروح المتنمر للحياة وللناس وهذا الجحود للعاطفة ، لن يحصد من الورد إلا الشوك ...

السعادة الروحية . .

سأكتب إليك ياسيدى بالرغم من السدود التى قامت بينى وبين القلم حتى صدئ أو أصبح عييا . ولم لاأكتب وقد كنت من كتاب «السفور» و «الأفكار» وغيرهما فى شباب النهضة الوطنية وتتلمذت على «دياب» فى فن الإلقاء والخطابة . وهويت التمثيل مع «رشدى» وكانت لى مواقف مع «سعد» وأمامه ؟

أنا شاب : وقد جاوزت الأربعين تجرى فى عروقى دماء الشباب الحارة . جاوزت مرحلة الشيخوخة فى طفولتى وصباى ، فقد ولدت بين أبوين مختلطتين مصرى وتركية — وبالتحديد جركسية — خاضت قدماها الدماء فى حرب «الموسكوف» كما كانت تقول . وأنا ثامن ثمانية أغرم أبونا «بالعلم والتعليم» ونسيت أن أقول لك إنه حضر أول درس فى الأزهر ألقاه الأفغانى هناك .

وبعد أربعة شهور من مولدى كانت القرية تحتفل بمولد ولىّ فيها . وبينما الخيل تجرى فى حلبة السباق وقعت الواقعة !..

إذ أفلت من بين يدى الخادمة فهويت من السطح إلى الأرض على حجر . فحملونى بين الموت والحياة . مشجوج الرأس مكسور القدم ، ومن يوم أن فتحت عينى على نفسى وأنا أشعر بمركب النقص من هذه العاهة . فاعتزلت الأطفال ومرحهم إلى «مصاطب» الشيوخ ومجالسهم

أشرب معهم وأسقيهم إذا طلبوا الماء !.

وكبرت . ووصلت إلى نهاية الدراسة الثانوية . وأحببت حباً كان أول حب وأصغر حب . حباً دفعني إلى حرب مع مركب النقص في نفسي ، فكنت خطيباً من خطباء الثورة .. وحامل العلم فى مظاهراتها. واستشهد من حولى أناس كثيرون ، وبقى العلم سالماً مرفوعاً ، وتطور حبي وكبر ، وأقسمت أن أموت من أجل مصر .ولكننى لم أمت . وتكررت المعجزة .

وتزوجت على غير حب . ونجحت فى زواجى . وأنجبت بنين وبنات ، حتى توفى والدى . وهنا تحول النهر عن مجراه . إذ اجتمع مجلس العائلة وأقر انقطاعى عن معهدى لأقوم بتعهد الزراعة نيابة عن إخوتى الذين انتظموا فى سلك الوظائف والجامعات . وكانت تضحية أخرى . فقدت فى سبيلها ما ورثته عن أبى فى إتمام دراساتهم ومكثت بينهم صفر اليدين ، وما رضيت أن أطالبهم بحق ، إلا رضوا من «ذوقهم» أن يدفعوه ، وفيهم المحامى المدره ، والضابط العظيم ، والمدرس الكبير .

وهنا كان الفتح الأكبر من الله عن طريق من ساقهم الله إلىّ من رجاله . فقاموا على بنائى من جديد ببناء وصلت ناطحاته إلى السموات. فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.. لو عرفه الناس لأصبحوا جميعاً أمة واحدة دينهم التوحيد وربهم الله...

« عين »

كفاح يتيم . .

« ا. ب. ر. » من المنصورة ، نبت فى أسرة ريفية عريقة فى المجد لها تقاليد موروثة منذ مائة عام ، مات والده تاركاً له ولإخوته ميراثاً يقرب من مائتى فدان ، غير أنه لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره حينذاك . وعملت الرسميات حسب مقتضيات المجلس الحسبي . وعينت والدته وصية على التركة باشراف أحد أعمامه التسعة .

كانوا أربعة ذكور وأربع إناث لايعلمون من أمور الدنيا بطبيعة السن غير الأكل واللعب بين ربوع الريف الجميل . كانوا كطيور صغيرة تتنقل من مكان لآخر لايدرون مايدور خلفهم من مؤامرات دنيئة ، بل كانوا أسعد الناس بين أحضان أم رءوم ترملت فى فجر شبابها . وكما هى الحال فى البيئة المصرية أهملهم العم المشرف . بل وأهمل تعليمهم . ولأسباب لايعلمها إلا الله تغاضى ورفض دفع مطلوبات المدارس بحجة إجراءات المجلس الحسبي من أعمال وحسابات وديون . ويعلم الله أن والده مات ولم يتجاوز دينه مائة وخمسين جنيهاً لأحد البنوك نتيجة تعامله معه . شأنه شأن كل مزارع من سراة القوم. وفى يوم لازال يذكره عقب وفاة والده حضر إلى القرية مندوب من البنك كي يتحاسب مع المشرف وإخوته . وكان من الممكن أن يدفعوا مطلوب البنك متحدين معاً حباً منهم للخير ، ويتقاضونه فيما بعد .ولكن..

ولكن .. لم يسفر اجتماعهم مع مندوب البنك عن شيء من الاتفاق ، ودارت الأيام ، وأسرعت الأعوام . وأجرى البنك « اختصاصاته » على الأطيان ، والعم المشرف يرتع فى النعيم . حتى وقعت الطامة الكبرى . وأشهر البنك الأطيان فى المزاد ، وأمام كل هذا والمشرف فى سكرته ، لاهٍ مع إخوته الثمانية ، بربك ياسيدى ماذا كانوا يفعلون وهم عاجزون عن الدفع . بل وعاجزون عن إدراك المسئولية ، وما يترتب عليها ؟! لاشيء طبعاً . ولم يحرك المجلس الحسبي ساكناً ، وظل واقفاً مكتوف اليدين . لا داعى للحديث عن المجلس الحسبي وما يجره على البيوتات من الخراب والدمار مستتراً وراء حججه الواهنة وادعاءاته الركيكة ، زاعماً أنه باجراءاته الملتوية إنما يحافظ على القصّر وأموال القصّر !!

بعد ذلك تقدم وسيط الخير . وهو صديق لوالده ، لشراء جزء من الأطيان كى يؤدى مطلوب البنك وينقذ التركة من الضياع ، واجتمع مع الأعمام التسعة فى جلسة انفضت عن اللاشيء ، ولا أدرى ماذا كان يضيرهم لو نفذوا مشروعه ، وأنقذوهم ؟! غريب أمر هؤلاء الرجال ، وغريب أن يقولوا لأنفسهم ، يجب ترك هذه التركة بما عليها من دين كما هى حتى تضيع ليمشى هؤلاء الأطفال فقراء محتاجين ، ليتقربوا إلينا فى المستقبل لنستغلهم كرجال فى مزارعهم مأجورين ، لاعجب . ولا نعجب ، ولا نستنكر هذا ، فقد سمعوا هذا وهم صغار ، وأدركوه وهم رجال ، .. وبيعت الأطيان بأبخس الأثمان أمام المحكمة المختلطة إلا جزءاً يسيراً منها — لايمكن بأى حال أن يكفى مطلوباتهم ،

وعيشهم الضروري ،.. وتحوّل ملف أوراق التركة من المحكمة الابتدائية إلى المحكمة المركزية . لأن التركة أصبحت من اختصاصها .. ولم تنته مؤامرة الرجال التسعة عند هذا الحد .. بل ولم تأخذهم الشفقة ولا الرحمة لإبقاء الجزء الباقي من الأطيان .. ولم تتحرك في نفوسهم نخوة الرجال .. بل أرادوا بهم شراً آخر . فأوعزوا إلى بعض تجار القرية ليتقدموا بدينهم إلى المحاكم كي يعملوا اختصاصات جديدة على الجزء الباقي من الأطيان !! وفعلا عملت الاختصاصات على ماتبقى من الأطيان .. وتم لهم ما أرادوا والمجلس الحسبي نائم لايحرك ساكناً أيضاً.. وتمت المؤامرة الثانية وأشهرت المحكمة بيع الأطيان .. وتقدم لشرائها رجل .. أتدرى من هو ؟ هو هذا المشرف على التركة ، والمعيّن من قبل المجلس الحسبي !! معين كي يحافظ على القصر ، لاضياع القصر والتهام أطيان القصر . وضمت الأطيان إلى أطيانه وأصبحت في حيازته ، وأصبحوا بلا عقار ، وبلا مال .. ياالله ، أصبحوا بلا مجلس حسبي .. هذا المجلس الذي أقامته الدولة ليحافظ على كل تركة ويجمع أموالها في خزانته !! وأصبحوا بلا مشرف .. هذا المشرف الذي عينه المجلس الحسبي ليباشر استغلال الأطيان للقصر .. ويودع ماجمعه من غلتها في خزانة المجلس الحسبي للقصر ! إنها مؤامرة من المشرف على حياتهم .. وما قبل الإشراف بل ماسعى إليه إلا ليتآمر على أموالهم .. وقد تمت له مؤامرته ونجح .. وسقطوا هم المالكون الأصليون في الهاوية .. سقطوا من شاهق إلى الحضيض !. وتردوا من حالق إلى العمق السحيق !!

راحت الأم بعد ذلك تجاهد .. وتناضل فى سبيلهم حتى كبروا . وأدركوا كل شىء .. وكان لزاماً عليه وقد غدا فقيراً أن يشق طريقه فى الحياة .. فترك القرية ونزح إلى مدينة المنصورة والتحق باحدى الأعمال الأهلية ، ضارباً بالتقاليد عرض الحائط .. لخطة بيتها فى نفسه وهى إنقاذ ما يمكن إنقاذه .. وراح يجاهد فى سبيل عائلته من ناحية وأخيه الذى يكبره من ناحية أخرى . حيث استأجر جزءاً من الأطيان. واستطاعوا بذلك أن يسلكوا أخاهم الأصغر فى المدرسة ليواصل التعليم كى يلحق بأبناء أعمامه الذين سبقوه .. وأصبحوا طلبة فى الكليات الحربية .. والطب . والحقوق .

وهو يكتب هذا وقد برح به الألم ، وفاضت به الحسرة ، فتتحرك فى نفسه ذكريات قد طواها الزمن فنسيها .. ولقد اعتاد حياة الاغتراب ؛ حياة النضال والكفاح معتمداً على نفسه حتى جاس خلال أعوام قليلة بلداناً كثيرة وعالج شتى أنواع الأعمال الحرة . فكم يلذ له أن يذكر أيام شقائه وكفاحه الحياة .. فقد آلى على نفسه أن يعمل من أجل عائلته متجاهلا أن له أعماماً يمتلكون حوالى ألف فدان ، متجاهلا جاههم كوجهاء مديريتهم ، آخذاً طريقه نحو هدفه .. معتقداً أن العمل الحر لايشين الشباب ، وانخرط انخراطاً تاماً فى طبقة غير طبقته: حتى انتهى به المطاف إلى مكتب ستوديو مصر وكان ذلك على ما أذكر عام سنة ١٩٤٥ — فى شارع توفيق — وعمل أكثر من شهر « كومبارس» فى عدة أفلام كان آخرها «البؤساء» . حقاً لقد كان فيلما مناسباً لظروفه حتى عاش فى الأيام التى اشتغلها تحت عنوان حياته الحقيقية .. ولو

علمت شيئاً عن حياته التى عاشها فى القاهرة لأخذك العجب ! كان يقيم فى حجرة مظلمة رطبة فى رحبة عابدين بأجر شهرى قدره مائة وخمسون قرشاً هذا مع كثرة التساهل من صاحبة الدار .. ولكن كيف يحصل على هذا المبلغ بغير الكد والكدح ! !. ومع ذلك كان لايستطيع الدفع بسهولة .. بل وعجز فى النهاية عدة أشهر عن الوفاء . وتراكمت عليه الديون ، فسلك طريقاً آخر .. وعرض ساعة يده للبيع مع ملابسه الخارجية حتى استطاع سد رمقه ، واتقى غائلة الجوع فى بلد الفراعنة الجبابرة .. لقد كان صبوراً، أمام كل هذا يروغ كما يروغ الثعلب من صاحبة الدار ، يخرج قبل بزوغ الشمس ، ويعود عند منتصف الليل تحت جنح الظلام حتى لاتراه، فيحدث مالا يحمد عقباه .. وضاقت به السبل .. وضاقت به القاهرة ، وانقطع عن الذهاب إلى مكتب الاستوديو .. وأخيراً اختمرت فى نفسه فكرة ، فكرة مجرمة ؟؟ الهرب.. راجع ضميره مرات .. ومرات .. ولكن من أين له المال ؟ كى يقضى ماعليه من ديون لهذه السيدة الشابة صاحبة الدار . وراح عقله الباطن يرسم له خططاً كثيرة ، وهو منكمش فى فراشـــه المتواضع فى ركن الحجرة . وكان البرد قارصاً .. حيث لانور ولا موقد ولا دفء متوفر. وأخيراً تغلب الشيطان .. وانتصر.. وهرب من القاهرة رغم وجود أقربائه بل أولاد عمه الذين يشغلون مناصب عالية كضباط بالجيش ..ومفتشين بوزارة الشئون ، وموظفين فى شركات كبيرة وأصحاب صيدليات .. وكان من الممكن أن يقترض منهم بعض المال ، ولكنه كان مترفعاً محافظاً على كبريائه . فكانوا لايدركون عن حياته شيئاً .. ترك

القاهرة فى النهاية . تركها وهو يتنفس الصعداء . هرباً من هذا الكابوس قاصداً المعسكرات البريطانية ببلدة الخطاطبة بالقرب من وادى النطرون وعمل بها حوالى الشهرين .. ثم عاد إلى المنصورة ليتابع جهاده .. من أجل عائلته .. كم تعذب وكم ذاقت نفسه مرارة الحياة وما آلمها من مرارة .. إن استذكار هذه الحياة يشعره دائماً برجولته واحتماله للحياة.. كان متغاضياً عن كل شىء .. فى سبيل الحياة .. مركزه .. ومركز عائلته الاجتماعى ..

انقضى عام ، وقد عادت الأزمة المالية . وتفشت بين صفوف العائلة . فأصبح بدون عمل . وأخفق أخوه فى زراعة الأطيان .. وانقطع أخوه الأصغر عن متابعة الدراسة . كل هذا وكيان العائلة ثابت لم يتأثر ، ومركزها الاجتماعى لم يتصدع من هول مايحيط بها من أزمات .. وتنفست والدته الصعداء وهم حوالها وقالت : السلاح الوحيد الذى يضمن لهم الحياة .. وسكتت ثم راحت تنظر فى وجوههم أجمعين كمن ينتظر الجواب .. فقال لها : سلاح ؟ ! أى سلاح تقصدين ؟ قالت : وقد اغرورقت عيناها بالدموع — سلاحهم الدعوى الشرعية .. هى مابقى لهم فى الحياة .. بها تستوى حياتهم ويحافظون على مركزهم الاجتماعى وليس فى ذلك من عيب . فهو حق شرعه الإسلام وحققته العدالة لكل عائلة تماثلهم . وستحققه لهم السماء ..

غريب ! وعجيب أن يستجدوا المال من رجال لايعرفون طريقاً إلى دارهم .. ! ! ! أيطلبون مالا من رجال أشرار . حتى يقولوا فيما بينهم وللناس إنهم ما جاءوا إليهم إلا من شدة العوز والحاجة . فقال

لوالدته : كلا .. لن تقام هذه الدعوى . وهم رجال قادرون على العمل والكسب الحلال .. إذ كيف يتزلفون لرجال أضاعوا أموالهم ، وشربوا دماءهم ؟! كيف ذلك ؟ هذا محال .. محال . فقالت — وقد انحدرت على خديها دمعة كلها أسى —: إذن اعملوا ماتشاءون كرجال .. فقال لها : سنعمل وكونى مطمئنة .

لقد هاجروا القرية إلى عاصمة الدقهلية . وجاهدوا . والتحق كل منهم بعمل . وضمنوا السعادة .. وراح أخوه الأصغر يذاكر بالمنزل حتى نال شهادة الثقافة . وهو يتابع جهاده الآن ويدرس للتوجيهية .

* * *

لك الحق أن تعلم بعد هذه المعركة الكبرى .. معركة الحياة . إنه خرج منها ظافراً غير آسف على شيء . اكتسب تجارب شتى من الحياة ، ونال قسطاً وافراً من التعليم بالممارسة لا بالمذاكرة ، من التجارب لامن الكتب المدرسية . وكان الفضل فى ذلك اطلاعه الذى شمل معظم الكتب الأدبية ، والعلمية . وليست السعادة بالمال .. ولا بالأطيان ولكن السعادة فى العمل المثمر الناجح والجهاد فى سبيل هدف معين أسمى من كل شيء وهل ثمة ماهو أسمى من الكفاح ؟!

كتب لها ٣٥٠ خطاباً ! . . .

يقص علينا هذا المحامى قصة تكاد تكون أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع ، غير أن تحرياتنا دلتنا على أن ما جاء بها صحيح .. وإليكها :

كان عمره ٢٣ عاماً عندما تخرج فى كلية الحقوق . خرج إلى الحياة وقيد اسمه بجدول المحامين وبدأ مدة التمرين على رغم منه ؛ إذ كان يريد أى عمل فى القاهرة يدر عليه مرتباً ثابتاً حتى يتمكن من دراسة «الدكتوراه» فطرق باب الوظائف ولكن — كما هو أمر شائع بين الجميع — أن الالتحاق بأية وظيفة يحتاج إلى وساطة المال أو الرجال . وكان أبوه متوسط الحال ، لا بالغنىّ ولا بالفقير ، وكان يدخر قليل مال ، ففاتح بعض الناس فى مسألة ابنه حتى يحقق له أمانيه فسرعان ما أظهر بعضهم الرغبة فى القيام بهذا الموضوع مقابل أجر معلوم ، منه المقدم ومنه المؤخر . وقد كان ما كان ، فاذا بهؤلاء القوم من الخطافين ، وإذا بالشاب ووالده يقعان فريسة فى شباك النصابين المحتالين ، فضاع ما كان مدخراً من المال وانهارت أمانيه وأحلامه التى كان يبنيها بناء على وعود هؤلاء ، وضاع عليه وقت طويل فى انتظار تحقيق هذه الوعود . فبين طرفة عين لمس الواقع المر وهو بناء قصور فى طبقات الفضاء .. !

فهذه أول صدمة انتابته : مال أبيه الذى ادّخره فى شبابه ضاع ، والوقت الذى انتظره ذهب سدى ... ثلاثة أعوام كاملة ، مر بها على

ثلاثة رجال كل أخذ جزءاً ووعد بشيء ؛ فاذا هو لاشيء ... !

أخذ هذا الفتى المحامى بعد ذلك يفكر ملياً فيما عسى أن يكون القدر قد خبأه له ، وكيف يتوسل للحصول على عمل بمرتب ثابت بدلا من انتظار الظروف والأحوال . وأخذ يقارن هل من المستحسن أن يستمر فى المحاماة أو يبحث عن عمل آخر . إن المحاماة فى نظره تحتاج إلى صبر طويل وتضحية مادية ؛ وهو مجرد من المادة ، ووالده لايملك إلا مرتبه الضئيل الذى لايتجاوز بضعة عشر جنيهاً ، ولديه من الأخوات خمس .. ! وهذا لايكفيه كى يسير فى طريق المحاماة ، وهى تحتاج إلى مظهر خلاب ، كما أن ضميره — كما يقول — لم يألف حياة مغالطة الناس فى الرسوم ، ولا يقبل أن يأخذ أجراً أو أتعاباً مبالغاً فيها ، كما أن المؤخرات لايتحصل عليها إلا بعد رفع قضايا وإعلان أحكام وإجراء حجوزات وغير ذلك من المتاعب . فأخذ يقلب الطرف فى الموضوع من جميع نواحيه . فاعتمد — مع ذلك كله — على أن يسير فى المحاماه ويسعى فى الوقت نفسه إلى الحصول على وظيفة تتناسب ومؤهلاته ..

ولنر ماذا صنع هذا المحامى الشاب ، وكيف حاد عن جادة الصواب ...

أخذ يسرح بعقله وفكره شارد ، وعينه ناظرة إلى الفضاء .. ماذا يرى ؟!.. لاشيء !. أهناك شيء وراء الأفق ..؟ هذا مالا يعلمه أحد .. فأخذ يبحث وينقب بين خلايا عقله ، وحط به خياله على فتاة لعله يجد فيها مايريد أن يبلغه ، سواء كان العمل أو أى شيء آخر

يقصده .. هو الذى لم يتصل بأى فتاة من قبل إلا فى الخيال .. لأنه مستقيم ، لذته السيجارة ينفثها بين كتبه وأوراقه .. !

تصوّر هذه الفتاة الخيالية ، فى شخص فتاة واقعية هى كريمة أحد باشوات مصر ، ويعرفها قبل الآن ، ولكن كل معرفته إياها مقصورة على مايقرؤه عنها على صفحات المجلات من قيامها ببعض الأعمال الخيرية ، ومن نشر صورها فى المجلات لمناسبة مّا كحفلة من الحفلات.

فبدأ قصته معها بأن راسلها بعد أن عرف عنوان منزلها ومقر جمعيتها من دليل التليفونات .. ووصف فى أول رسالة لها حالته من فقر وشقاء، وما وقع فيه من نصب واحتيال ، وطلب منها أن تحادث أباها فى موضوع الالتحاق بأى عمل ، فى أية شركة من الشركات التى تحت سيطرة وهيمنة صاحب السعادة والدها .. الباشا ! ! وأمر بديهى لم يجد رداً فأتبعها برسالة أخرى ، وأخرى .. يكرر نفس الموضوع بألفاظ مختلفة ، فلم يجد رداً .. فما كان منه إلا أن اتبع طريق المدح والثناء ، فى شخص هذه الفتاة ، وهو كما يقول .. مدح لا أكثر ولا أقل . غاية مافى الأمر أبيات شعرية قد يكون ظاهرها الغزل الرقيق .. كما يبدو للقارىء لأول وهلة ، ولكن معانيها تحمل المدح ، والمدح فقط ، وإن سميناه غزلا ، فهو غزل برىء حيث إن الغرض شريف .. ! ويقول واصفاً شعوره نحوها ، إنه كان يفكر فيها الليل والنهار ، وأطيافها تتراءى له فى المنام ! وما كان يبغى من وراء هذا كله إلا أن يفوز بصداقتها ، ولو تكون له مجرد أخت عساها تنشله من وهدة الشقاء الذى يرزح تحت عبئه .. ! ! ولا يريد منها إلا هذا الإحسان .. وكان يعجب

بها لاالدرجة أنه يود الزواج منها ، فالأمران عنده كانا منفصلين . وفكرة الزواج لا يمكن أن تتحقق إذ الفارق بينهما عظيم فى التقاليد والعادات ، والثراء ، والجاه ، والمكانة ، إلى آخر مانراه من فروق بين الطبقات . وإن حدث أن اقترن ابن الفقير ببنت الغنى فهذه حالات شاذة نادرة جداً .. فهو بذلك لم يكن يريد منها إلا أن تكون واسطة خير بينه وبين أبيها الباشا حتى يلحقه بعمل ..

ثم ذهب إلى القاهرة وتقابل مع أحد كبار رجال الدين ورجاه فى التوسط له ليلتحق بعمل بعد أن قص عليه حاله .. فرق له وزوده ببطاقة شخصية وكتب عليها توصية ورجاء لفلان باشا « وهو الباشا المذكور آنفا .. ! »

ولا أريد وصف شعوره ، فذلك أمر بديهى معروف ..

أخذ البطاقة وذهب من فوره لمكتب الباشا ، وبعد المرور على الوكيل وتسليمه البطاقة ناداه الباشا وسأله عن موضوعه ، فشرح له حالته ، وطلب منه مساعدته ، فوعده الباشا خيراً ، على أن يرجع بعد شهر . فشكره الشاب . ثم رجع بعد شهر ولكن « الباشا » استمهله ، وهكذا تكررت المواعيد خمسة أشهر ، ولا طائل تحتها .. وأخيراً — بما أنه غريب بالقاهرة مما يتطلب مصروفات — عزم على الذهاب لمنزل « الباشا » وهناك قابل الطاهى وسأله عن « الباشا » وهل يمكن أن يقابله بالمنزل ؟ ..

وعاد فى صباح اليوم التالى — كنصيحة الطاهى له ! — وكتب ورقة صغيرة يذكّر بها « الباشا » ببطاقة التوصية .. وبوعده إياه ،

وأعطاها للطاهى ليوصلها ، وزفّ إليه هذا ، أن يذهب وينتظر «الباشا» فى مكتبه ..

فذهب وانتظر .. إلى أن دخل «الباشا» وجلس إلى مكتبه ، واستدعاه ، فدخل عليه محيياً ، ولكن «الباشا» لم يجب ، وسأله عن طلبه ، فشرحه له ، فما كان من «الباشا» إلى أن سأله :

ـ حضرتك المحامى بالجهة الفلانية ..؟! »

فرد عليه بالإيجاب . فعاد يسأله :

ـ حضرتك الذى تكتب الأشعار الغزلية لابنتى ..؟!؟ .

فأجاب المحامى بالإيجاب أيضاً !..

فقال له الباشا :

ـ هل تعرف ابنتى قبل الآن ؟ وهل اتصلت بها ؟ وهل أعجبت بها ؟ فى أى عصر من العصور .. وفى أى مملكة من الممالك حصل مثل هذا ؟!؟ أحد أمرين : إما أن تكون عاقلا فإلى محكمة الجنح .. ! أو مجنوناً فإلى مستشفى المجاذيب ؟!!

فرد عليه المحامى زاعما أن ليس هناك مايمنع من كتابة خطابات مادام الغرض شريفاً ! وخطاباته لاتحوى شيئاً يعاقب عليه ..! وكل مافى الأمر أنه أراد أن يصل إلى سعادته عن طريق كريمته حتى تكون له واسطة خير للالتحاق بعمل !.

وعندئذ أشار «الباشا» إلى الباب : أن اخرج وابحث لك عن وظيفة متعلقة بالشعر الغزلى !! .

رجع إلى بلدته فانتظر شهرين ولم يراسلها ، فأعاد الكرة مرة أخرى

وأخذ يراسلها شعراً غزلياً قد يكون رقيقاً فى نظر البعض ، سخيفاً فى نظرها ـ ضارباً لها الأمثال بمثل هذه الحالة فى العصور السابقة . ويقول إن رسائله قد بلغت قبل مقابلته لوالدها حوالى مائة رسالة .. وبعد مقابلته مائتين وخمسين .. أى إن مجموع ما كتبه ثلثمائة وخمسون رسالة .. ! ! فيها الشكوى والأنين من الشقاء الذى هو فيه ، ومنها المدح والثناء فى شخصها وفى شخص أسرتها العريضة الجاه ! ومنها العتاب على مقابلة أبيها له بمثل ماقابله .. ومنها بعض رسائل اجتماعية عن سوء الإدارة والنظام فى بعض النواحى المصرية .. وكان الرد على طول الخط .. عدم الرد ..

وتولدت عنده رغبة أو شبه رغبة لمقابلة بنت «الباشا» شخصياً عسى أن يقرأ على محياها شيئاً ، مع العلم أن المدة التى قضاها فى مراسلتها أربع سنوات .. ! !

ذهب إلى القاهرة والتحق باحدى شركات التأمين بصفة وقتية ، وكان لايقصد من وراء تلك الوظيفة التى هى «منتج بالشركة» إلا أن يتصل بكريمة الباشا فلم يجد سبيلا لمقابلتها غير هذا !.. وإن كان يشعر فى نفسه أنه بكتابة كل خطاباته ، وبعد مقابلته لوالدها ، يمتهن كرامته ويصل إلى درك الذل والهوان ، ولكنه يقول : كم من الناس يهينون كرامة أنفسهم بأنفسهم فى الدقيقة بعد الدقيقة وهم لايشعرون.. ! أو بالأحرى يتجاهلون .. فحرر لها خطاباً بنفس الخط وبنفس التوقيع بعنوان المحل الذى نزل فيه وشرح لها فيه موضوع التأمين ، وأرفقه بطلب من طلبات التأمين ، فان قبلت أرسلت له الطلب بالتالى موقعاً

عليه حتى يقابلها وتتم الإجراءات ! وقصده معروف أن يقابلها ليرى هل تقول له شيئاً .. !

كتب هذا الخطاب مسجلا بالبريد ، وانتظر ثمانية أيام إلى أن واتاه الرد بصورة مقتضبة وقالت فى ردها: «استلمت خطابكم المؤرخ بتاريخ ... وهو الخاص بطلب التأمين ويسرنى أن أذكر أننى سأعرض هذه الفكرة على مجلس الإدارة وهو صاحب الرأى فى هذا الموضوع ، ولذلك فالطلب معاد لكم بالتالى ..» .. وبديهى أنه سيذهب للجمعية لمقابلتها لمعرفة ما إذا كان الأمر عرض على المجلس وماذا تم ..

ذهب إلى الجمعية بعد تسلمه هذا الخطاب بأسبوع وطلب مقابلة «فلانة» وهناك استأذن فى الدخول ، وحياها تحية الصباح ، ولكنها لم تجب واقتصرت التحية على السلام باليد وأشارت له بالجلوس ، فجلس وبادرته بهز الرأس ففهم منها أنها تشير له أن يشرح طلبه .. فسألها عما إذا كان الموضوع الخاص بالتأمين قد عرض على مجلس الأدارة ؟ فردت عليه ملوحة بيدها : « لم يوافقوا » ! وكأنها تريد أن تقول شيئاً ولا تريد التعبير عنه ، فلم يلتفت إلى ثورتها وغضبها حينما كانت تتكلم . وسألها أن تؤمن هى شخصياً على نفسها . فقالت له إنها لاترغب فى ذلك.. ! وفى نبراتها الثورة والغضب .. ! فقام مسلما ، شاكراً ، منصرفاً ... !

بعد ذلك ذهب إلى بلدته وأرسل لها أربعة خطابات فقط .. ! عاتباً عليها ثورة الغضب التى كانت بادية على محياها .. أثناء مقابلته ،

ولم تعره رداً . . وإلى هنا لم يشأ أن يكتب لها ، وياللهوان الذى أصابه إذ شعر أن كرامته قد أهينت !

أما عن شعوره نحو الفتاة فلم يتغير ولم يتبدل ، كأن طيفها يتراءى له على الدوام . ولم يخطىء فى هيئتها الخارجية ، أما هيئتها الداخلية فمن الجائز أن يكون قد أخطأ .. إنها فتاة الجامعة الأمريكية وفرنسا وأمريكا وانجلترا .. وإن كانت مصرية ، من أب وأم مصريين ، بل وصعيديين .. أما هو فمحام ناشىء كل دراسته تنحصر فى المدارس الثانوية والجامعة المصرية . . . !

وهو الآن يسير فى طريق المحاماة عسى أن يواتيه الحظ ، ولكنه للآن لم يقابله مثل هذا الظرف . وتخلى تماماً عن فكرته ، ولا يريد أن يتمادى فيها حفظاً لكرامته التى أهينت أولا أمام نفسه ، وثانياً أمام أبيها ، وثالثاً أمامها .. شخصياً .. !

وهو يعلم تماماً حال الغنى وشعور الأغنياء ، وأنهم لايفكرون فى الطبقتين الفقيرة والمتوسطة .. ولكن السؤال الذى يحيره ، هو معرفة رأينا فى هذا المحامى الفتى وفى تلك الفتاة الغنية الأرستقراطية العضو فى إحدى الجمعيات الخيرية .. ! !

ويرغب معرفة هل أخطأ باتباعه هذه الطريقة التى لاتخرج عن أنها وصف لشعوره فقط .. وعلى أى وجه يفسر صمتها ، ألم يكن من المستحسن أنها كانت تصده بدلا من الصمت؟ أم أن هذا مرجعه إلى الاستهزاء والسخرية والاحتقار .؟!

* * *

ـــ يا سيدى !

إن ماعمله المحامى الشاب دليل على اضطراب الأعصاب . فهو قد تردد فى المحاماة بادىء ذى بدء ، متطلعاً إلى وظيفة ، لأن المحـــاماة تتطلب الصبر الطويل .. مما أعجب أنه كان نافد الصبر فى تأسيس مكتبه وتكوين مستقبله بالعلوم الثانونية التى درسها ، وكان أطول الناس صبراً وجلداً فى اضطهاد كريمة الباشا التى لم يرها إلا من صورتها. ولم يعرف منها إلا اسمها ، وحاصر بيت أبيها ومكتبه ، ووسط لديه الطاهى ليبلغه رسالته !.. ثم هو لم ينكص على عقبيه من طول صمتها، ولم ير فى ذلك برهان ترفعها عن أن تشغل نفسها بالسفاسف ، أو ترد عليه رداً جارحاً .. لكنه فسر الصمت لمصلحته !.. وتخبط فى هذا كله تخبطاً عجيباً يدعو إلى تدخل علماء النفس وأطباء الأمراض العصبية !..

إنه فقير ، ويعلم أنه فقير ، لكنه لم يكن أبيـًا . فتهافت على بنت الباشا الغنى غنى طائلا كأنما زعم الحب عندها جزءاً من الأعمال الخيرية التى تزاولها !..

لذلك لاعجب إذا استصغر نفسه بعد ذلك فقد ركب مركباً خشناً ، واندفع فى الاعتداء على حرية فتاة ، وهاجمها فى عملها وفى دارها ، وأمطرها وابلا من الشعر الغزلى الذى لايليق بطالب وظيفة .. وإن يكن قد قيل : «إن طالب القوت ماتعدى ..» غير أن ٣٥٠ خطاب غزل ، وتوسل ، وابتهال ، وشعر ، وصبابة ، هى اعتداء أىّ اعتداء !..

إلى مكتبك ياسيدى تشق طريقك بعرق الجبين ، وبالكفاح والنضال . عن غير طريق التشبيب ببنات الناس وربات الحجال !...

شكوى شاب ناجح !..

« ... تحية قارىء قديم يحبك ويقدرك ويذكر فضل أدبك على روحه وفكره ، وبعد ...

لقد تحدثت عن الشباب ومشاكله وطلبت منا نحن الشباب أن نشترك معك فى الحديث ، وأن نكشف لك عن جروحنا فى صراحة وإخلاص ، لعل فى ذلك هداية للقائمين على شئوننا وتعليمنا ، والمتصدين لمشاكلنا ، ودرساً لأخواتنا وإخوتنا الذين سوف يسيرون يوماً على الدرب الذى أدمى أقدامنا من كثرة ماتكدس فيه من شوك وقتاد . ولعلك تتوقع أن تكون رسالتى هذه شكوى صارخة من الفشل المادى أو الإخفاق فى التعليم ولكنها ليست كذلك ، إنها — إن أردت الدقة فى التعبير — شكوى شاب ناجح — واعجب معى أن يكون بين الشباب من يشكو حاله ، وهو أول المقرين بأنه نال من حياته فوق ما تصور فى صباه ، لاأريد أن أطيل عليك فلنبدأ القصة من أولها ...

نشأت فى أسرة فقيرة فى المال والعلم والجاه جميعا . كان أبى — أطال الله بقاه ، ونفعنى برضاه — كاتباً صغيراً فى محل تجارى صغير ، يحفظ القرآن ويجيد تلاوته ، كثير الصلاة والتهجد ، لم يحتس الخمر فى حياته ، ولم يقرب من النساء إلا ما أحل الله . وكان دخل الأسرة محدوداً ، بل لعله كان أقل بكثير مما أنفق اليوم على سجائرى ، ولكنه

كان رجلا مستقيما يحب أسرته وأولاده ويمنحهم كل مايستطيع ، وأمى — أمد الله فى حياتها — امرأة فاضلة عرفت كيف تزرع الخير فى نفسى منذ طفولتى ، ولاتزال صورتها فى مخيلتى أيام أن كانت تقضى الساعات ترتق جواربى وتكوى ملابسى . يا لهذه الأيام ! إن فى بيتى اليوم أكثر من خادمين ، ولكنى دائم الصراخ ، وملابسى يكويها كواء معروف ، ولكنه يحرق أطرافها ، وفى وسط هذا الجو من رقة الحال والرضا بما قسم الله نشأت ، وأستاذى الأول والأكبر أبى ، كان هو الذى بذر بذرة الطموح فى نفسى وجعلنى أخشى الله فى كل خطوة أخطوها ، كان كثير التشجيع لى ، مطلق الثقة فى خلقى واستقامتى ، كنت أخافه وأحبه وأحترمه ، ومازلت حتى يومى هذا ، وقد أصبحت رجلا ناضجاً ذا مرتب ضخم وزوجة وولد لاأجرؤ على التدخين فى حضرته . وفى مثل لمح البصر — وبفضل تشجيع أبى ورعاية أمى — انتهيت من دراستى الابتدائية بالمجان ، ثم الثانوية بالمجان أيضاً ، وكذلك الجامعة . وقبل أن أبلغ العشرين كنت قد تخرجت فى الجامعة المصرية أحمل درجة ممتازة فى مادة يهرب منها كثير من الشباب ...

على أن تغير الحال من حولى ، وتطور الأجواء التى أحاطت بى لم تغير شيئاً من نفسى ، ماقربت امرأة طوال فترة المراهقة الحرجة ، وما احتسيت كأساً ، على كثرة من عرفت من الزملاء الأغنياء أصحاب « الشقق » والمغامرات ، ليست لى مغامرة أذكرها ، ولكنى أذكر زميلة جامعية لفتت نظرى وأنا لا أزال أطلب العلم ، كانت ممشوقة القد ،

سمراء البشرة ، نجلاء العينين ، سوداء الشعر ، راقصة الخطوات . كنت أنظر إليها كأنى أتعبد ، حتى إذا ما التقت عيوننا سمعت دقات قلبي كطلقات المدفع ، لم يكن بيننا أكثر من ابتسامات عابرة ، ثم قطعت الفتاة دراستها الجامعية واختفت من الجامعة ومن حياتى إلى الأبد .

ويوم نلت درجتى أفهمنى أبى فى صراحة الرجال أن مهمته قد انتهت ، وأن علىّ أن أكسب عيشى بنفسى ، ثم أضاف أنه يؤمن بى ويقدرنى ، وأن علىّ البحث عن عمل دون وساطة أو نفوذ . وحصلت على عمل محترم فى أيام معدودات ، وكان ذلك فى شركة كبيرة ، بدأت من القاع — من أول السلّم — غير أنى سرعان ماقفزت ، وفى أقل من عامين كان مرتبى قد تضاعف ونفوذى فى مصائر الناس قد امتد ، أجل ... أقول مصائر الناس وأنا أعنيها ، ولولا أنى أخشى الكشف عن شخصيتى لرويت لك الكثير ، ولكن يكفى أن تعلم أن الله قد عاونى بفضله ، فأخذت بيد كثير من الشباب وعمرت الكثير من البيوت ، وما امتدت يدى إلى رشوة على كثرة ماعرض علىّ ، أو طمعت فى قبلة من ثغر غانية على كثرة من تكدس منهن فى مكتبى للوساطة والرجاء .

وقابلت زوجتى — كانت أول مرة أقابلها فى شيء من الحرية — وعرضت عليها الزواج ، واستشرت أبى فبارك الفكرة ، وتزوجتها ، ودارت الأيام فاذا بى زوج سعيد ، وأب سعيد ، ثم سافرت إلى أوروبا فترة غير قصيرة ، وجلت فى أنحائها ، وتركت عملى فى الشركة إلى عمل آخر

أكبر وأحسن ، وواتانى التوفيق وفزت بثقة كل الذين عملت معهم فشجعونى ، وضربت فى الأرض ، إذ طبيعة عملى الحديد تدعو للتجوال ، قابلت الكثيرين وفزت بصداقتهم أجمعين ، تناولت الطعام على مائدة أكثر من ملك ؛ تناولته وأنا جالس القرفصاء فى قلب الصحراء ، وتناولته فى أدغال وسط أفريقية ، وعرفت العديد من النساء من ذوات الأسماء والصفات ، عرفتهن جميعاً على شواطىء التيمس والسين ومرابع دجلة والنيل والعاصى وفى قلب أفريقية وعلى سواحلها ، ولكنى لم أخن زوجتى مرة واحدة ولم أقدم — على كثرة الإغراء — على مايغضب الله ، وما ظلمت أبداً على سهولة الظلم وكثرة وسائله .

على أنى مع هذا قلق من ذلك النجاح ، إن الدنيا وقد فتحت لى بعض أبوابها ، قد مكنتنى من رؤية أشياء ماكنت لأراها لو لم تفتح هذه الأبواب ، إن زوجى امرأة عادية ، فى جمالها وثقافتها ومظهرها ، وما عرفت هذا إلابعدأن رأيت غيرها وغيرها من ذوات العيون والأهداب.. لا تلعنّى ولكن استمع إلىّ ، إنى لم أفكر يوماً فى أن أهجر هذه الزوجة ، فهى رفيقة الجهاد ، وهى أيضاً أم أولادى الذين لاأعدل بهم شيئاً ، إنى أرتعد إذا مافكرت فى خيانتها أو حرمانها مما يحق لها ، إن هذا لن يحدث إن شاء الله ، ولكن ماذا أعنى ؟.. لقد فكرت طويلا ، ورأيت ألا مفر من أن أغمض عينى وأستعيذ بالله وأمضى فى طريقى حرصاً على بيتى ألا يتهدم ، غير أن الأمر لاينتهى بمجرد الاستعاذة ، إنها أزمة نفسية شاقة ، إنى أشبه ما أكون بحبة الذرة بين شقى الرحى ، فهل أصمد ؟.. هذا ما أرجو !

وقد يعنّ لى أحياناً أن أجمع بين الحلال والحرام، وأنظر إلى ماحولى فأجد الدنيا كلها قد جمعت بين النقيضين ، ولكنى أخشى معصية الله كما قلت لك . وأشعر شعوراً قوياً بأنى لو عصيته لتبخرت من يدى كل تلك النعم التى أرفل فيها ، إذن لامفر من أن أصبر مستعيناً بالله مستلهما إياه السداد .

وصبرت ياسيدى ... صبرت الأيام والأسابيع والشهور ، بل والسنين. ومضيت أنظر إلى أعماق نفسى ، أستشف السر فى هذا القلق ، بل قل هذا الظمأ ، تُـرى هل حطمنى العمل حتى أصبحت رجلا مكدوداً ؟ أم ترانى وقد خلا صباى من المسرات قد اشتقت إلى المجون ؟.. وأخيراً ، وبعد بحث طويل فى أغوار نفسى ، تبينت سر القلق ، إنها تلك السمراء التى زاملتنى الدرس من عشر سنوات بعيونها السود وقدها الممشوق . لقد سمعت أنها أصبحت اليوم زوجة وأماً ، فمالى بها ومالها بى ؟.. ولكنى فى شوق دائم لها أتطلع لكل وجه أراه لعله وجهها ، وأتصور فى كل يوم المحادثة الأنيقة الرقيقة المهذبة التى قد تدور بيننا يوماً من الأيام ، ياللهوى الذى ينام فى القلب عشر سنوات ثم يستيقظ كالمارد تكبله القيود !..

لك منى تحية أخرى ، ثق أنى لست حزيناً ، فإن ضحكاتى ترن فى كل مكان ، ولكنى ... ولكنى ماذا ... إنى أترك لك أن تصفنى بما يرضيك ... »

« شـــاب مكافح »

* * *

ـ أيها الشاب المكافح الناجح ...

دع المارد فى قلبك نائماً ، مكبلا بالقيود . إنه إذا استيقظ ، بعد هذه السنوات العشر ، فستكون أنت أول ضحاياه .

لقد ظل قلبك حتى الآن ممتلئاً إيماناً ، وظل بدنك مترفعاً عن الدنايا ، وكنت قوياً ببرّك بوالديك ، مزهواً بفضائلك ، « والقابض على دينه كالقابض على الجمر » .. فلماذا ـ وقد تزوجت وأنجبت وسعدت زوجاً وأباً ، وقد كبرت سناً ومركزاً ـ تريد أن تعود إلى أحلام الصبا ، فتدع الشيطان يتسلل إلى حصنك الحصين ، وينهب نعمك وفضائلك ؟ !

ولست أريدك على أن تنساها .. وإلا حرمتك أجمل صور شبابك . بل أقول لك : اذكرها ، من وقت إلى آخر ، داعياً لها بالخير ، والطمأنينة ، والصفاء .. فهى زوج وأم . وقد تباعد طريقا كما وتشعّب سبيلا كما فى الحياة .. دعها إذن فى فؤادك صورة جميلة تنفض عنها غبار الأيام ، من حين إلى حين . لكن لا تحاول أن تجسّم الصورة امرأةً تخرج عليك من إطارها ، وإلا فهذا هو الجنون ..

إن رسالتك تدل على معين عظيم من الخير فى قلبك . فلا تدع هذا المعين ينضب ويجف كما لو كانت قد امتصته الرمال.. وقد يجمع الله بينك وبين ذات العيون السود والقد الممشوق . لكن ثق أنك ستجدها قد تغيرت كثيراً وصارت مخلوقة أخرى .. إن لمعان العيون قد انطفأ قليلا لأنه قد توزّع .. توزّع بين الزوج والأبناء .. ذلك

الضياء الذى كان مركزاً أثناء الدراسة الجامعية ، والذى بهرك ، قد استقر الآن على وجوه متعددة ، أليفة حبيبة ، هى وجوه الأهل .. لم تعد تلك العيون السوداء التى عهدتها كالنصلة الماضية ذات الطعنة النجلاء ! .. وكذلك القد الممشوق قد نالت منه السنون ..

وبالطبع ، إنك لو رأيتها اليوم فجأة فى الطريق فقد يخفق قلبك .. خفقة سريعة قوية .. لكنها خفقة لشبابك الذى ينهض فجأة أمامك ، فيروعك شبابك !.. ثم تمر .. بابتسامة هادئة .. ودعاء منك لها .. وربما أيضاً بدعاء منها لك ..

دع إذن ياصديقى الكريم ذلك المارد الجبار مكبلا بالقيود ..

مأمور الضرائب

ليس هذا الحديث دفاعاً عن مأمور الضرائب ، أو دعوة إلى زيادة مرتبات ومنح درجات . إنما هو صورة قاضى المال ، والمال عصب الدولة ، يجزع أمام المغريات ويترفع ، ولو لقى الويلات .

إن هذا الحديث إنذار لنا لنحمى فضائل النفس البشرية ، لتظل عالية ، كريمة ، أبية .. فلا نلقى بها ظلما فى حضن الشيطان ...

. . .

تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩٣٩ — ولأنه لم يجد قريباً يحمل لقب باشا أو بك على الأقل — ولما كان تعليمه للأسف لا يؤهله فى كثير أو قليل لخوض غمار الحياة العملية ، فقد ألقى بنفسه إلقاء على أول وظيفة كتابية صادفته .

نقل إلى مصلحة الضرائب وله فيها الآن ست سنوات ، ويحز فى نفسه أن يواصل الليل بالنهار فى سبيل ملء خزانة الدولة بالمال وهى تضن عليه بما يقيم أوده وأود زوجته وأولاده .

ويقول : أى فرق بين القاضى ومأمور الضرائب ؟ إنه يفصل فى مصالح الناس ، وهم يفصلون فى مصلحة الدولة ، مصلحة الخزانة . والقاضى حصّنته الدولة حتى يتفرغ لإقامة العدل بين الناس ، أفلا تخشى الدولة أن يضيع العدل بينها وبين الجمهور ؟ وإذا كانت الدولة قد

رفعت من قدر القاضى مادياً وأدبياً خشية الميل ، مع أن القاضى عليه ألف رقيب ، من خصوم لايغمض لهم جفن ، ودرجات أعلى من القضاء استئنافاً ونقضاً ، وعلنية فى الجلسات. أما مأمور الضرائب فلا رقيب عليه إلا ضميره ، وهو يؤدى عمله فى سرية تامة ، وغلطته سهواً أو عمداً لا إصلاح لها . ومسائل المال شائكة ومليئة بالمغريات ويقص علينا ما وقع لزميل له من مصادفة مؤلمة :

ترك زميله ابنه مريضاً فى المنزل بلا دواء ، ولم يكن فى جيبه درهم والرجل نظيف ، عف اليد ، قوى الإيمان وليس فى زملائه أو معارفه من يملك إقراضه حتى يحين أول الشهر. حضر إلى المأمورية ، فانتدب لمعاينة «حالة» كبيرة فى مكان ما من (...) فاعتذر ، وفضل أن يتولاها غيره ، فلما سأله صاحبنا عن ذلك ، حكى له عن ولده المريض ، وعن جيبه الخاوى وقال إنه خشى أن « يواجه » — وهذه حاله— إغراء من أى نوع ، وهو إذ ذاك ، وفى محنته تلك كان أضعف من أن يقاوم ، ففضل تجنيب نفسه قسوة الامتحان .

* * *

.. ومع ذلك كنا نحب لو أن والد الولد المريض قد «واجه» الإغراء ، وقاومه ، وترفع عنه . فهذا هو الخلق الذى ننشده فى خدام الدولة جميعاً ، وإذا نحن فرطنا فى خلقنا سقطت كرامتنا ولم تعوضنا عنها بعد ذلك أموال الناس جميعاً ...

هاربٌ من الأزهر !

« ... وأما مايوجب الفدية ، فهو فعل كل محرم يحصل به ترف وتنعم للمحرم ، أو إزالة الشعث عنه ، كالاغتسال فى الحمام ، وقص الأظافر ، ونتف إبطه ، وإزالة القمل عن جسمه أو قتله .. » !..

قالها الشيخ فى إيمان عميق ، وفى نبرات فخمة ضخمة ، وسمعها هو فى حزن وألم وتردد وشك ، ثم اندفع فى غيظ مكبوت متفجر ... لا !.. كذب وبهتان ! ليس فى دين محمد هذا ، ولن يكون ، فقد كان فى حياته وعقيدته ودعوته ، مثال الطهر الكامل ، ومن شأنه هذا محال أن يدعو أتباعه إلى التمسك بالأقذار والأوساخ !.

وغضب الشيخ ، وغضب الطلاب ، وغضبت إدارة المعهد لغضبهم ثم قيل له فى حزم وعزم ، اعتذر لشيخك وتب لربك وحاذر أن تعود إلى هذا اللون من الصراحة ، وإلا لفظك الأزهر فى غير مبالاة فقد حفظنا عن أشياخنا وشيوخهم ، أن الأزهر ينفى خبثه ، ويلفظ المعوجين من شبابه ، فيدفع بهم مشردين إلى الطرقات ..

واعتذر لشيخه تحت ضغط الظروف ، وإن لم يتب إلى ربه ، فقد كان يؤمن فى أعماق قلبه وقرارة نفسه أنه لم يصنع شيئاً يخرجه من دائرة الإيمان ، ولم يصدق أبداً أن الأزهر ينفى خبثه ويلفظ المعوجين من شبابه ، فلم يقل أحد مطلقاً إن دكتور طه ، وأحمد أمين ،

وعبدالوهاب عزام، وكثيرين غيرهم كانوا من خبث الأزهر ، وإن يكن الأصح أنهم خلاصة أبنائه ، ضاقوا بجوه العتيق، ومؤامراته الدنيئة ، فتركوه إلى عالم أرحب وأطهر ، يعمل كل شيء فى وضح النهار .

ولم يكن صاحبنا فى مبدأ أمره راضياً عن الأزهر كل الرضى ، ولا غاضباً عليه كل الغضب ، فقد أراد له أهله أن يكون إلزامياً يبلغ وظيفة فى زمن وجيز ، وأراد هو أن يكون «أفندياً» يبلغ أقصى المراتب وأعلاها ليصلح من أهله وقريته مايستطيع ، فلما حالت الظروف دون مايريد ، قنع بالأزهر ، ورضى أهله به ، على أمل أن يصبح عالماً تقياً ، يجتازون الصراط فى رحابه إلى الجنة !..

فلما اصطدم فى عامه الأول بهذا اللون من العلم ومن التفكير ومن الأساتذة أسف كثيراً ، وقطع كل صلته العلمية بمعهده الأزهرى ، وإن بقى مقيداً فى سجلاته ودفاتره وأوراقه ، ويؤدى الامتحان فى نهاية كل عام ..

كان لايلم بالمعهد إلا فى حصص الحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيميا ، فقد كان يجد فى دراستها لذة وشغفاً ، وكان أبغض مايبغض الفقه والنحو والمنطق والصرف ، برغم أنه كان يتذوق الأدب ويهواه ، ويتمنى لو أتيحت له الفرصة فيصبح صحفياً ، لينقل إلى العالم الخارجى متاعب وآلام الآلاف من زملائه ، يعذبون فى الأزهر دون أن يثير أمرهم اهتماماً !..

ومن ثمَّ فلم يكن يستغرق فى الفصل من يومه العلمى إلا حصة أو اثنتين ، ثم يغدو إلى بيته أو إلى المقهى ، أو إلى شاطىء البحر

وفي يده كتاب أو كتب ، فيطالع فيها بلذة لاتعدلها لذة ، ومتاع لايعلوه متاع ، ولا يزال يذكر أنه قرأ « الأيام » و« عصفور من الشرق » ما ينيف على خمس مرات ..

وكلما تقدم به الزمن ، وتقدمت به الدراسة ، وكان يزداد لهذه الجامعة وعلومها ودروسها بغضاً ؛ فقد كانت مباحث الفقه وكتبه من نوع تافه غث ، لايتصل بحياتنا الحاضرة بأوهى سبب ، وكانت علوم النحو والصرف والبلاغة ، تنهض على كتب الأوائل ، وبعضها ألف في أحط عصور اللغة ، فصيغ في أسلوب وعبارات تعقّد المنحل وتصعّب السهل ، ولا تخرج منها بعد دراسة عشرين عاماً بشيء !..

وفهم هذا هو جيداً ، فلم يكن يذاكر إلا قبيل الامتحان بأيام قلائل ، ولم يكن يفهم من الكتاب إلا بضع قواعد وكلمات يدخله بها والغريب أنه كان يجتازه دائماً من أول دور ، شأنه شأن هؤلاء التعساء ممن عدموا النصيح ، فراحوا يفنون شبابهم الغض وأفكارهم الطازجة في تفهم واستيعاب المعقد من هذه الكتب وهذه العلوم !.

وأشد ما كان يؤلمه أن يتمتع أصدقاؤه من شباب المدارس بأجسام فتية قوية ، وحياة طلقة بهجة ، وذوق فنيّ ضاحك ، نتيجة مزاولتهم لضروب شتى من الرياضة والموسيقى والرحلات ، وكلها أشياء تتوافر في مدارسهم لمن يشاء ، أما الأزهر رضى الله عنه وأرضاه ، فلا يعرف من الرياضة شيئاً ، ولا يزال أشياخه يفتون بأن كشف مافوق الركبة للرجل عورة من المحرمات ، ولا يعرف من الموسيقى شيئاً ، ولا تزال لديه من العبث الذى يستعاض عنه بالتسبيح والصلوات !..

كل هذه أشياء كان يحسها ويلمسها ويتقصى أسبابها ، ولم يؤمن يوماً بما كانوا يقولون من أن الحرية قد أفسدت شباب مدارسنا ، فهو يعرف جيداً أن الأزهر برغم هذا الضيق وهذه الرقابة ، كغيره من مدارس القطر يخضع لعوامل الطبيعة والبيئة والتربية ، بل لعل للحرمان أكبر الأثر فى الدفع بقدر من شباب الأزهر إلى إدمان الفساد ، وإن يكن فى الخفاء ..

شهد هذا فى معهد قنا ، وشهد هذا فى معهد القاهرة ، ورأى بعينه الطلبة يضربون شيوخهم ، ورأى بعينه الشيوخ يغتابون زملاءهم ، وضاق بحياته العلمية الراكدة ، والتى تتأخر ولا تتقدم ، والنتيجة الحتمية لدراستها أنها تأكل الذوق والفكر والعقل، ولا تدع لك من المواهب إلا أنها تجعلك نسخة من أى كتاب . !

يذكر هذا فى أسف وحنق وغيظ ، وازدراء لهؤلاء الذين يغدون إلى مكاتبهم فى الصباح ويعودون منها إذا انتصف النهار دون أن يهبوا الأزهر من عنايتهم شيئاً .. ما موقفه كرائد للرسالة الروحية أمام المادية الطاغية التى تكتسح فى طريقها كل شىء ؟ مامصير الثقافة الأزهرية ، والتعليم المدنى فى طريقه إلى أن يصبح كله مجانياً ، وما هو مدى الإصلاح الذى تحتاجه لتساير تطور الزمان ؟..

لاشىء من هذا ...

إنما الحديث كله عن العلاوات والترقيات ، وعن محسوبية هذا الشيخ أو ذاك ، وعن الأيام التى سوف يعيشها شاغلا منصبه ، ومتى يزوره عزرائيل فيريحهم منه ويخلى لهم الطريق !..

فلما فتح الله على أحدهم يوماً بفكرة، وكان عميداً لإحدى الكليات، وقد تعقدت مشاكلها واضطرب أمرها، وساءت حالها، ترك كل هذه الشجون والشجون، واهتم بشيء واحد، هو إصداره قراراً بأن لا يسمح لأى طالب بدخول الكلية إلا إذا كان شيخاً معمماً، وبديهى أن القرار تحطم، وأن صاحبه تحطم أيضاً، لأن أحداً فى الوجود لا يستطيع أن يفرض على إنسان ما، فضلا عن مثقف، الزى الذى يرتديه !..

ودخل الامتحان الشفهى يوماً على اثنين من الأشياخ، فلما رأياه فى زيه الإفرنجى اربدّ وجهاهما، وتركا المناقشة، وراحا يحاسبانه على تركه العمامة، وتخليه عن «الكاكولة»، ومروقه من الدين !..

ولم يعوزه الرد، ولم يفحمه السؤال، فقد كان يعرف جيداً أن أبناءهم وأبناء غيرهم من شيوخ الأزهر وعلمائه، أفندية يتلقون علومهم فى المدارس المدنية، فضلا عن الأجنبية، وهى تضم بين جوانحها عدداً لا بأس به من فتياتهم الزاهرات الناضرات !..

تبخر الأمل فى التقدم أو الإصلاح، لأن المسيطرين على شئون الأزهر يرهبون الغريب وكل فكر حرّ، إذن فلينج بعقله، وليرحل بفكره إلى آفاق فسيحة من المعرفة والنور، وليبحث عن جامعة يستطيع فى ظلالها أن يتمتع بما سما من طيبات ومتع الحيـــاة !

واتجه بصره إلى كلية الآداب بالجامعة، فقد فتح أبوابها دكتور طه يوماً — أبقاه الله — للأزهريين، ثم أوصدت من جديد إلا للذين يجيدون إحدى اللغتين . !

ولم ييأس صاحبنا، وإنما استمد من الشقاء المحيط به فى الأزهر

قوة تعينه فى صراعه مع الحياة ، فهو فى مطلع النهار بالأزهر يذاكر للشهادة ، وهو فى منتصف النهار بمجلة تدرّ عليه بضعة جنيهات يستعين بها على العيش ،وهو فى المغرب فى مدرسة فرنسية ، وهو فى آخر الليل فى صحيفة أخرى ، يقبل على هذا كله بهمة ونشاط ، إذا استثنينا ساعات الأزهر الشريف ...

إنه مجهود فوق طاقته وجهده ، ولكنه يرتاح إليه ويعشقه ، ويستميت فى الوصول إلى غاياته جميعاً ، لأن هناك فتاة طاهرة مثقفة كريمة تحنّ إليه ويحنّ إليها ، كانا فى طريقهما إلى حياة حلوة هنية ، يظلها إخلاص وحب وحنان لولا أنها عاجلته فى يوم عاصف مع أخيها الشاب ، بأنهما لا يستطيعان المشى معه إلى نهاية الطريق ، لأن صويحباتها فى المدرسة — وهى مدرسة أجنبية — يعيّرنها بأن خطيبها سوف يكون فقيهاً .. فلعن الأزهر وبكى ، ثم رجاها أن تصبر عليه ، وأن تنتظر قليلا ؛ وما هى إلا شهور قلائل ، حتى يغادره إلى غير رجعة ، مهما تكن الظروف والأحوال !..

وصبرت وأمّلت ، ولا تزال تنتظر النتيجة فى كثير من الجزع والقلق ، وإن يكن قلبه أكثر منها جزعاً وقلقاً ، وأشد خوفاً على مصيره الرهيب ، وحياته المعلقة فى ميزان القدر الرهيب .

ويهمس فى أذنه صديق شاب : إن النظام الذى علقت عليه مستقبلك ذهب ولن يعود ، فيعتريه ذهول ، ويعتريه دوار ، فليس من السهل على فكره وقلبه أن تذهب كل جهوده عبثاً فى الهواء !..

وفى هذا الجو الخانق من العمل المضنى ، والمستقبل الغامض ، يكاد

يتهافت إيمان المرء بالله وبالبشر وبالمجتمع ، فلا يجد عزاءه إلا فى التحلل من كل القيود التى تعترض ذهنه أو جسمه ، حين يبغى الوصول إلى مايريد، قُلْ : لولا أن يتداركه الله بلطفه !.. «ا. ا. م »

* * *

سألنا فى هذا بعض علماء الأزهر ، فقالوا إن الأحكام التى وردت فى العبارة الأولى ليست دستوراً عاماً يشمل جميع الناس فى كل زمان ومكان ، بل هى مقصورة على وقت معين ومكان معين ، هما وقت الحج ومكانه . والحكمة فى هذا هى أن يكون الإنسان فى هذا الوقت متجرداً لله ، بعيداً عن دنياه ، خالصاً مخلصاً من كل مايتصل بزينة الحياة وزخرفها . ثم بعد ذلك ، تعويد النفس أن تحتمل وتصبر على المكاره . ووراء هذا وذاك، أن يكون الناس جميعاً أمام خالقهم سواء ، فى حال لاتشعر بأى لون من ألوان العظمة ، ذاهلين عن كل شىء سواه .. على أن الشرع قد أباح ارتكاب هذه المحظورات بشرط دفع الفدية ..

إذن فليست هناك دعوة إلى التمسك بالأقذار والأوساخ — وإن كان سماع تلك العبارة لأول مرة يبلبل الفكر . والإنسان فى حياته العملية وكفاحه من أجل العيش قد يضطر فى كل يوم إلى أن يغوص لركبتيه فى الأوحال ، أو أن يعفر جسده بالتراب ، بل وبالفحم والقطران ... فما ظنك بعمل كهذا ؟! وعلى من ؟! ومتى ؟ وأين ؟.. إنه مفروض فى الأراضى المقدسة على القادر المستطيع فى العمر مرة واحدة ! !

ثم إنه يظهر من كلام « الهارب من الأزهر » أنه ساخط تهاوى

إيمانه بالله . وهم يخشون أن يكون جواده قد كبا فتخلف عن ركب إخوانه ، ثم دفعه الحنق إلى شن هذه الحملة النكرة ،، ويتساءلون ماشأن ما ذكره عن شيوخه ومعهده ، بجده هو واجتهاده ؟ ! ومنذا الذى ماساء قط ؟ ! ربما كانت بيئته العلمية — على ما بها — خيراً من سواها ، وإذا كان فى مطلع حياته هكذا موزعاً مشتتاً بين دراسته وأعماله الخارجية ، قبل أن يحمل بين يديه سلاحه ، فانهم يشفقون عليه أن يكون كالمنبتّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى..

أما بعد ، فرجائى إليك أن توجه نفسك نحو هدف واحد ، وأن تكتفى من العمل الخارجى بما يعينك على أداء رسالتك التى وجهتك الأقدار إليها .. إنك إن فعلت فتحت أمامك الآفاق ...

أما عن حياتك العاطفية فأحب أن أقول لك إن العبرة ليست بالشكل والمظهر إنما هى بالحقيقة والمخبر .. فكم من مطربش بنى بيته بأصابع الشيطان ، وكم من معمم أسسه على الحب والسعادة والحنان ، وليس للمرأة أن تعنى بالعرض دون الجوهر ، فالحب لايعترف بالفوارق فضلا عن التوافه ، وما هو إلا أن تتلاقى على الأحلام القلوب حتى يفنى المحب فى المحبوب ..

أيها الشيخ الشاب الثائر الذى يتدفق حرارة وحماسة : إن الله لاينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ! .

خواطر ضابط الجيش

لقد ارتضى الملازم الأول « م. ع. ز » بمحض اختياره أن يكون جندياً . ولكن لشدّ مايحز فى نفسه مايلاحظه أبداً من عدم تقدير مواطنيه لضابط الجيش الذى لايعتبرونه ــ ظالمين ــ إلا شخصاً أراد أن يكتسب المركز والمادة من أقصر طريق فدخل الكلية الحربية ليخرج ضابطاً يتعالى على الناس بسترته ونجومه !..

وبهذه المناسبة تحضره بعض نصائح تليت عليه فى أول التحاقه بالكلية يدونها ليؤمن المواطنون أن ضابط الجيش أبعد إنسان عن هذه التهمة . وهذه النصائح بعنوان : « أيها الطالب تذكر : » !

١ــ أن مجيئك إلى الكلية والتحاقك بها كان بمحض اختيارك فإن كان الأمر معك غير ذلك فخير لك أن تترك الكلية .

٢ــ أن التعليم العسكرى هو التعليم الوحيد الذى أساسه التضحية الشاقة من جانب من رغب فيه وأنت قد رغبت فيه . فان كان الأمر معك غير ذلك فخير لك أن تترك الكلية .

٣ــ أن أهم فضائل الجندى هو التقشف ، ولا فرق بين جندى بسيط وضابط كبير ، فان كان الأمر معك غير ذلك فخير لك أن تترك الكلية .

٤ــ أنك لم تختر مهنة من المهن التى تدر الربح على صاحبها وفضلت أن تكون جندياً فاذا كان الأمر معك غير ذلك فخير لك أن تترك الكلية.

٥ـ أن ماتتناوله من مرتب ليس أجراً على عملك . فان من يختر لنفسه مهنة الموت فى سبيل بلاده لا يطالب بثمن موته ، فان كان الأمر معك غير ذلك فخير لك أن تترك الكلية .

٦ـ أن إيمانك بحق بلادك فى الحياة الحرة هو الذى يوجب عليك التضحية فى سبيلها فان كان الأمر معك غير ذلك فخير لك أن تترك الكلية .

واجعل شعارك دائماً : « الواجب ـ التضحية ـ الأمانة » .

فهذه الكلمات البسيطة ـ وهى أجلى ما يعبر عما يأتى على عاتق الضابط من مسئولية ـ هى إنذار لكل من تغريه النجوم البراقة على الالتحاق بالجيش ، حتى إذا تناساها شخص ليس أهلا لها فسرعان ما يجد تيار العسكرية الجارف بخشونتها المرهقة ومسؤوليتها الجسيمة ومثلها العليا يلفظه ويقذفه من هذا الطريق ، طريق الواجب والتضحية والأمانة وإنكار الذات .

إن قلب هذا الضابط يمتلىء بالألم إذ يسمع من مواطنيه كلمات الاستهتار برسالته النبيلة المصحوبة بالرثاء لهذا الشاب العاطل الذى يسمى نفسه ضابط الجيش ، والذى لاعمل له إلا استقبال التعظيمات والتحيات من اليمين والشمال ، واعتراض مواكب السيدات للتباهى أمامهن بردائه ، وملوءه الكبر والعجرفة .

وإذا التمس العذر لبعض الجهلاء فى ذلك فماذا يقول إزاء المتعلمين الذين يعتقدون أن الضابط يحمّل خزينة الدولة كسوته وغذاءه فوق مرتبه الذى يبالغون فى تقديره والذى يعتقدون أنه ينفقه فى ملذاته الخاصة !..

إنه لا يتذمر رغم قسوة الواجب والمجتمع عليه لأنه يعمل بالنصائح التى ذكرها ، ولأنه لاينتظر أن يتقاضى ثمن حياته التى يبيعها عن طيب خاطر فداء مليكه وبلاده .

هذه صيحة لايقصد بها إلا أن يكون ضابط الجيش موضع تقدير مواطنيه وموضع ثقتهم ، وذلك هو الثمن الوحيد الذى ينتظره الجندى ثمناً لحياته فى سبيل بلاده إذا جدّ الجد ، وهتف داعى الجهاد ، ولا بد أنه سيهتف فى يوم من الأيام !.

* * *

أخى الضابط

لكأن القدر كان يهيء الجواب على سؤالك حين هيأ لك ولإخوانك البواسل الأمجاد فرصة الجهاد فى فلسطين ، فرفعتم رأس الوطن عالياً شامخاً ، وأثبتم أن فى مصر رجالا — ضباطاً وجنوداً — وأصبح كل مواطن فخوراً بكم ، معتزاً ببسالتكم ، مديناً لكم ...

إن الجيش ورجاله قد خطوا صفحة جديدة فى تاريخ مصر ، ووصلوا الحاضر بالماضى ، وأعادوا ذكرى أمجاد عظيمة للبسالة والبراعة والقيادة والتضحية والتفدية .. وعند ما يكتب هذا التاريخ تفصيلا بنزاهة ودقة سيعرف العالم وأبناء الأجيال القادمة أن الضابط المصرى والجندى المصرى جديران أيضاً بتماثيل من البرنز والمرمر فى أفخم الساحات ...

عقدة فى لسانه

أنا طالب بالسنة الثانية بكلية العلوم « قسم الرياضة البحتة » ولقد جاهدت كثيراً فى السنة الأولى حتى نجحت ، بيد أنى لا أجد من نفسى ميلا إلى أن أكون مدرساً ، وهذا راجع إلى وجود لكنة فى لسانى تجعلنى أنطق حرف الراء ياء ، وهو مايعرض مستقبلى للإخفاق ، وإنى على استعداد لأن أحول إلى كلية التجارة .. فهل لديكم سبيل إلى علاجى أو إنقاذى قبل ضياع سنة ثالثة من عمرى لأنى بدأت أقصر فى واجبى لعلمى بأنه ليس ثمة فائدة من العمل فى كلية العلوم .

« ع . م . ا »

* * *

لعل فى نطقك الراء ياء بعض الجمال ، وكثير من الجمال لايشعر به صاحبه . فاستمر ، وادأب ، فستكون ناجحاً وممتازاً فى حياتك ما انطلقت إرادتك التى تحاول تكبيلها بحبائلك من غير مايستحيا منه . ثم إن هناك تدريباً خاصاً لعلاج اللكنة فى مدارس الشواذ ولدى العلماء النفسانيين قد ينفعك ، كما أن إجازة كلية العلوم ليست وقفاً على التدريس ، ففيها مجال العمل ذو سعة فى المصانع والمعامل والمباحث ، فلا تقصر بعد اليوم فى واجبك ، ولا تتشاءم من مستقبلك .

جنى عليه اجتهاده !.

« م. ا. م. » موظف صغير الوظيفة ، تضطرب قصته اضطراب حياة صاحبها :

قُدّر له أن تتلقفه الآلام منذ ولادته ؛ فقد خرج إلى الدنيا شبه أعمى ولذا لم ير دنياه – كما يراها كل طفل – مشرقة بهجة ، بل كانت مظلمة كئيبة . كان كمن استبدل السجن بسجن آخر . روّع والده وكان عمره حينئذ عشرين عاماً ، ودفعته حماسة الشباب التى لا تعرف المستحيل إلى أن يعالجه عند كبار الإخصائيين أربع سنوات دون كلل أو ملل حتى نجح العلاج ، وأصبح من عباد الله المبصرين !.

وكان لهذا الشقاء الذى قاساه فى فجر حياته أثره البالغ فى جسمه وفى روحه ، فنشأ ضعيف البنية ، عليل الصحة ، هادىء النفس هدوءاً غريباً ، وكان لحياة الوحدة والظلام وعدم أخذه بأسباب اللهو واللعب ، مضافاً إليها آلامه التى تركت رواسبها فى قلبه إلى اليوم ، أثره فى صقل عقله ، وإدمانه التفكير فى كل شىء ، وتخوفه من الحياة ومن المستقبل المظلم المجهول ...

وما إن بدأ يعرف الحياة حتى تلقى أولى صدماتها ، كان والده تاجراً متوسط الحال ، ومُنى بخسارة جسيمة ، فاضطروا فى هذه الفترة أن يعيشوا عيش الكفاف وذاق مرارة الحرمان وهو لايزال غض الإهاب .

كان غذاؤهم طول الشهر « الفول المدمس » و« العدس » فقط .
واستطاع والده بجلده وقوته وكفاحه أن يسترد مكانه بعد شهر واحد ، وينمى ثروته فى سنوات معدودات بعدئذ . ومن ذلك الحين بدأ يشعر بمسئولية رب الأسرة وبالشقاء الذى يعانيه فى سبيل إسعادها ، ونبتت فى قلبه بذور الرحمة ، الرحمة بكل فقير ، ضعيف محتاج إلى العون .

وانتظم فى الدراسة الابتدائية ، وكان عقله الذى أرهقه العمل منذ أن عرف معنى التفكير فى دنيا الظلام ، كان — فى نظره — قد بلغ سن الرشد ، وهو لايزال فى طور الصبا ، فقفز سنى الدراسة قفزاً ، وسرت أسرته وأكبرته حتى نال الشهادة الابتدائية بتفوق .

كان أخوه الأكبر قد التحق بمدرسة الصناعات ، لأنها بالمجان ، وكان يكره الاستذكار ، وتسيطر عليه هوايته ، وهو أن يجمع « الطباشير » ويشتريه ليكتب اسمه وأسماء إخوته على الحوائط ، مزهواً بخطه الجميل ، وفنه المبكر ، ولذا ألحقه والده بـ « قسم النقش » استجابة لرغبته وهوايته .

وكان طبيعياً أن يلتحق بالمدرسة الثانوية ، وامتلأ إهابه الصغير زهواً وفخراً بذلك . وبدأ يسمع ألقاب المستقبل تلقى عليه من كل حدب وصوب دون ضابط ولا حساب . والده يريده « محامياً » فهو لايناديه إلا « ياأستاذ » ! ووالدته تصر على أن يكون طبيباً . فهى لاتقول له إلا « يادكتور » ! وهذا ابن عمه يصر على أن يكون «مهندساً» وهكذا أخذت آماله تتكون وتتبلور . وبدأ يتخذ من هذه الألفاظ الساذجة أساساً يبنى عليه مستقبله . واستقر رأيه أخيراً على أن يكون

طبيباً ، يمتح عيادته فى بلدته الصغيرة ويعالج أسرته وأصدقاءه بلا أجر ويكون رسول الرحمة للمرضى والمصابين ولذلك انتسب فى السنة التوجيهية إلى « شعبة العلوم » ونجح فى الدور الأول . عام ١٩٤١ .

من هنا يبدأ شقاؤه الحقيقى ، شقاء النفس إذا استحالت آمالها آلاماً ، فنى هذا العهد ، كان لوظائف الحكومة ذلك البريق الأخاذ ، وكان العاطلون يملأون الدنيا صياحاً وضجيجاً ، مما حدا بالوزارة أن تطلب حداً أدنى لمجموع الدرجات شرطا للالتحاق بالكليات حتى يقل عدد المتخرجين . وكان الجامعيون يقبلون التعيين بأى مرتب ، ولما استطاع أحد النواب بعد جهد جهيد أن يعين قريباً له كاتباً فى محكمة بستة جنيهات — وهو حاصل على ليسانس الحقوق — كان ذلك فخاراً له أى فخار ! !

جاءه والده يقول له ، إنه مخير بين أمرين : إما أن يفتح له محلا تجارياً ، أو يسعى لتوظيفه فى الحكومة ، أما الجامعة فلا !. وسأله دهشا — وقد اغرورقت عيناه بالدموع — عن السبب ، فأخذ يسرد عليه الأسباب ، وهى ضيق ذات يد الوالد بالمصروفات الجامعية ، وضعف صحة الابن فلا تتحمل الكدح فى الاستذكار ، وتشدد الكليات فى الالتحاق بها ، مما يستلزم وساطة ومجهوداً كبيراً ، فضلا عن أن الشهادات العليا لاقيمة لها ، وأخذ يضرب له الأمثال قائلا : إن هذا « حلاق » يكسب أكثر من طبيب ، وهذا محام يترافع فى قضية نظير علبة سجاير « سمسون ممتاز رفيع ! » ثمنها قرش ونصف قرش ، وهذا « بناء » ليس معه شهادات ولكنه يعمل تحت أمره

مهندسون أربعة وهذا .. وهذا ..

بدأت آماله تنهار ، وحاول عبثاً أن يثنى والده عن عزمه . فأسلم أمره لله .

اختار الوظيفة كما بدت له — راحة وبلادة ومواعيد محددة وماهية مضمونة — والتحق بمصلحة البريد فى القاهرة .

ثم حوّل من تلك المصلحة إلى مصلحة أخرى فعاد إلى بلده ، ولكنه عاد كالخيال ، جسد محطم أرهقه العمل ، أعصاب تالفة ، نفس ثائرة على الاستعباد الذى عاناه سنة ونصف سنة ، كأنها قرن ونصف قرن ، ولكنه لاينسى فضل تلك المدة التى قضاها فى القاهرة ، حيث تكونت رجولته ، وتعلم كيف يعامل الناس ، وخبر أخلاقاً وشخصيات من مختلف الأعمار والدرجات والبيئات .

بدأ فى بلدته يستعيد شبابه ونشاطه ، وأخذ ماء الحياة يترقرق على صفحات وجهه رويداً ، رويداً ، ولم تمض شهور حتى تجدد شبابه ، وتجدد نشاطه ، وتجددت بتجددهما آماله .

ولما لم يجد حاله قد تحسنت من قانون الإنصاف ، الذى عم فى ذلك الحين ، أراد أن يهجر الوظيفة ليتم تعليمه الجامعى ، ولكن والده صارحه بأنه من غير المعقول أن يوافق على استقالته من وظيفته ، لأنه لايريد أن يحمل همّ مستقبله مرة أخرى . ولم يجد حلا إلا أن يحاول وأد آماله بأن صرف عقله عن التفكير فيها ، فأدمن على القراءة ، ووجد فيها الوسيلة لإشباع ظمئه إلى العلم .

حاول أن ينقل إلى جهة أخرى . ولكن اجتهاده الذى جعله يلتحق

بالثانوية وينال « البكالوريا » تلك الشهادة المنحوسة ، اجتهاده هذا كان حجر عثرة فى سبيل نقله ، فإن المصلحة لايمكنها الاستغناء عنه !! وكان هذا الاجتهاد من ناحية أخرى مدعاة إلى أن ينال ثقة رؤسائه ويتراكم عليه العمل بحالة لايتصورها العقل ، ولكن أين الحكومة التى ترى فتثيب المجد ، وتعاقب الكسول ؟!

لكن : هل انتهت آلامه عند هذا الحد ؟ إنه مؤمن حقاً . راضٍ فعلا ، ولكن ماذا يعمل لطموحه ، ونفسه التواقة ، ولعل له بعض الحق ، فلو أن إنساناً مكانه لأظلمت الدنيا فى عينيه ؛ فهو موظف الدرجة الثامنة المخفضة ، يقف مرتبه عند ثمانية جنيهات لاتتعداها بحكم كادر سنة ١٩٣٩ ، الحريص على أموال الدولة التى تبهظها خمسمائة مليم علاوة دورية ، ولا تؤثر فيها العلاوات بعشرات الجنيهات التى تمنح بدون حساب لكبار الموظفين !!

إنه كلما رأى إخوانه الذين كانوا متخلفين عنه تحصيلا للدراسة وفهما وإدراكاً قد سار بهم التعليم العالى إلى حيث عليا المناصب والدرجات . أما هو فهو فينشد مع الأول :

تقدمتنى أناس كان شوطهم   وراء خطوى لو أمشى على مهل !

رفض أن يتزوج برغم الإلحاح المتواصل عليه ، لأنه يشفق على أعصابه وعلى نفسه من مجرد تصور حالته فيما لو تم الزواج . وليس معنى هذا أنه لايؤمن بقدرة الله على زيادة رزقه ، ولكن لأن الله خلق له عقلا به يفكر ، وبه يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، والزواج استقرار ، وهو لازال حائراً مضطرباً لايرى مايستقر عليه .

وهو أحد ثلاثة إخوة ، أكبرهم كان عدم اجتهاده فى علومه سبباً فى توجيهه حسب هوايته ، فنال آماله ، وأصغرهم لم يحاول التعليم فرسب ، وانتهى رأى والده إلى إشراكه معه فى متجره . أما الأوسط ، وهو المرسل ، فقد اجتهد فى دراسته لكى يحقق آماله ، فاذا بالأقدار توقفه عند مرحلة « البكالوريا » فأصبح كالمعلق بين الأرض والسماء ، لاهو بلغ السماء لينال مايتمناه ، ولا هو ظل على الأرض ليستريح كغيره من عامة الناس ، ولم يجن من ذلك إلا اضمحلال جسمه ، واعتلال صحته ، واتساع نطاق آماله ، واجتهد فى عمله ، فعاقه ذلك عن تحقيق مآربه .

إذا لم يكن عون من الله للفتى ∴ فأول مايجنى عليه اجتهـــاده

وهو أحد من جنى عليهم اجتهادهم ، وإلى أن يأتى عون الله يرجو أن يكون على قيد الحياة ، وأن يكون لايزال من شباب هذا الجيل ! ! .

* * *

يا أخى

إنك حىّ ترزق ، وما زلت من شباب هذا الجيل . فاهنأ بما بلغت ، واحمد الله على ما أديت ، واعلم أن الآمال ليست هى المطامع الدنيوية فى حدود الأرزاق المادية ، ولكنها المرامى السامية ، والأهداف العالية ؛ أهداف الروح والقلب والنفس الكبيرة . فلعل ذا حظ عظيم من الرزق هو أضأل الناس حظاً من السمو وعظمة الذات .

لقد تسلح . . فأين الميدان ؟

تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩٤٦ ، ويطلب ، أن نسمح لأنفسنا بالخوض قليلا معه فى حياته الخاصة لنعلم مبلغ ما كان يلاقيه من صعاب هو سعيد بتغلبه عليها :

كانت الحياة أشبه بميدان حرب . فبينما تجد جيوش الفقر تزحف عليهم تريد أن تخرجه من المدرسة لعجزه عن دفع المصروفات ، تجد والده الحنون الفقير يصبر ويطول صبره وفى اللحظة الأخيرة ينتصر إذ سرعان ما يطلب المدد من الدول المجاورة ، فوثقت فيه ومدت إليه يد المعونة وتمر هذه الفترة العصيبة بسلام ، والتى كانوا يقاسونها ويصطلون نارها ثلاث مرات فى السنة — وهى مواعيــد دفع الأقساط المدرسية .

كان يراقب والده ، ويفهمه ، ويشفق عليه . لقد ظلم نفسه ووالدته وإخوته الصغار وأبت نفسه الكبيرة أن يظلمه ، ولكن الحياة هى الآن تظلمه وتجعله أسيرها . وبينما هم فى هذه الحال — ولا تكاد تنفك كربة حتى تحل بهم أخرى — إذ توسط له نائب دائرتهم فأعفوه من مصروفات كلية الحقوق .

وها هو ذا قد حصل على الليسانس ويريد عملا شريفاً ، ليعيش عيشة الكفاف من طريق كريم . يريد أن يأكل الخبز لا «الجاتوه» يريد خبزاً غير مأدوم فماذا يفعل ؟ تقدم يطلب وظيفة إلى كثير من

الوزارات ، ولكن هيهات ... فأبوابها مغلقة فى وجهه إذ لاوساطة له ! .
إذن سيسلك الطريق الطبيعي الذى يسلكه كل متخرج من كلية الحقوق : فهيا إلى مكتب محام بالقاهرة ليقضي فترة التمرين . يمر شهر وثان وثالث لا يقوى على احتماله ، فلقد ضاق ذرعاً بالنفقات ، فيعود إلى بلدته الريفية ، حيث المحامون لا يقبلون الصغار أمثاله ، إذ المكاتب لا تحتمل محامين ! !

فكيف يتخلص من هذا المشكل ؛ مشكل الفقر ؟ سيبقى فى عقر بيته المتواضع يدفن مواهبه ويقبر علمه . ها هى ذى آماله تذوى ، وها هى تى المذكرات والكتب الجامعية يرثيها ويبكيها صباحاً ومساء حتى إذا آوى إلى فراشه تمنى من صميم فؤاده ألا يطلع عليه صبح جديد .

* * *

يا صديقى المحامى الناشىء الشاب — إذا لم يكن استيعابك التعليم الجامعى قد أنار عقلك ، وأضاء ذهنك ، بحيث تستطيع أن تكشف طريقك فى حلك الوجود ، وظلمة الأزمات ، فما أحراك بتعليم آخر يبصّرك بما لا تبصر ...

إن سلاحك العلمى لا يقطع حواجز النجاح والفلاح مالم يكن مصقولا بالإيمان القوى ، مرهفاً بالعزيمة الصادقة ، ومن لا إيمان له ، ولا عزيمة فيه فلن يجديه العلم شيئا . ! ! ومن كان ذا إيمان وعزيمة فأحْرِ بالصعاب أن تتلاشى من طريقه .. ! ! فليست فى الدولة وظائف يمكن أن تستوعب جميع خريجى الحقوق . . كافح إذن فى الريف أو فى الحضر ، فى أى عمل ، ولو كان تجارياً أو زراعياً أو صناعياً ، فهنا محك الرجال ..

نزاع يهدم أسرة ! .

يثور « ج . ح . ع » على التقاليد الجامدة التى يرزح تحت وطأتها ، وهو موقن تمام اليقين أنه سيأتى اليوم الذى ستصبح فيه هذه التقاليد هشيما تذروه الرياح .. وهاهى ذى قصته ، التى يستدل بها على صدق قوله ، وصواب رأيه :

دعنا نعُد القهقرى أربعة عشر عاماً ، أى عندما بدأ يدرك بعض مايحيط به . وجد نفسه فى بيت دعائمه الشقاق ، وأركانه النزاع بين الوالدين ! ولم يكد يعرف أن له والدين يجب عليهما العناية بأمره وإخوته ، حتى بدأت اللطمة الأولى ، تلك اللطمة التى وجهت إليهم هم الأخوة ، فى غير رحمة ولا شفقة ، وتمّ ماكان لابد أن يتم فى بيت أساسه شقاق ، ودعاماته نفور ، فانهار وانفصل الوالدان فهذه هى التقاليد ! ! وفتح الشقاء مصراعى بابه ، عندما فتحت عيناه على الحياة وما فيها ، وبدأ النزاع : والدة تطلب حقها وحق أولادها الشرعى ، ووالد تزوج من أخرى ليعنى بنفسه ، فكيف تنسى له العناية بأولاده ؟ ! . طلب فرفض ، ونزاع فقضايا ، ومشاكل فمحاكم. والأولاد بينهما تماماً ـ لاكريشة فى مهب الريح ترتفع رويداً وتهبط رويداً ـ بل ككرة بين أقدام لاعبين ، يلتقطها أحدهم لالشىء إلا ليركلها بكل ما أوتى من قوة وعنف فيتلقفها آخر وهكذا ! .

وتمضى الأيام وهم بين هذا وتلك ، فى تردد وحيرة ، كدمعة فى عين حزينة ، يدفعها الأسى ، وتمنعها الكبرياء . حتى أراد الله لهذه الأمور أن تهدأ ، وهذا النزاع أن يستقر . ويعلم الله على أى وجه كان هذا الهدوء ، وهذا الاستقرار ، وسكن الجميع ماعداه . فقد كان الوحيد الذى يجب أن يتلقى العلم ، ولكن أى علم يتلقاه ؟ يمضى أياماً فى أحد الجانبين فى هدوء وسكينة نوعاً عندما تهدأ العاصفة . فاذا هبت عصفت بهذا الهدوء ، وهذه السكينة ، فتقتلعه من مكان ، فيجد نفسه فى الجانب الآخر ، وعليه أن يواظب على دراسته وأن يتمها ، وأن ينجح !. وهذا هو الجانب المشرق من حياته .. أجل فهناك جانب ليس فيه هذا الإشراق .. ذلك أن النزاع يقتضى أحياناً أن يأخذ الوالد بثأره من الطرف الآخر ، وذلك — عنده — أن يحرم الابن — ابن الطرفين — من تلقى العلم ، فيمضى العام ، ويأتى موعد الامتحان ، وهو على أتم مايكون استعداداً ، ولكن الغضب يعمى البصر والبصيرة فيمنعه أبوه من دخوله ، لالشىء إلا نكاية فى الطرف الآخر ، وعلى من تقع النكبة ؟ على أم رأسه . ذلك الرأس الذى كاد الشيب أن يشتعل فيه ، ولم يكد يودع حلقته الثانية إلا منـــذ أشهر وهو لم يتقدم فى عام من الأعوام للامتحان ورسب ، ورغم هذا فهو مايزال فى سنته الدراسية الثانوية النهائية ! وهكذا ترى ماذا جنته هذه الخصومة الطائشة ، وهذا الحقد الأعمى . ولعل هذا لم يكن كل شىء ، فقد جعلت منه هذه النكبات شخصاً مكتئب النفس ، مرهف الحس ، تفعل به الكلمة البسيطة فعل السم الزعاف فتثقب الكبد ، وتمزق الأحشاء .

مضت أيام وأعوام ، وهدأت الأمور بمضى الزمن ، وانضم إلى جانب الوالد ، لاهمّ له إلا تلك الدروس يستوعبها ، وتلك الكتب الأدبية يرتوى منها . والتى يهرع إليها عندما يمضه اليأس ، فتكون لهذا القلب الكسير ولهذه النفس العطشى ، وهذه الروح الملتهبة ، كقطرات الطل على الأغصان الظماء .

ومل بما يدفعه له من ضروريات ، وأخذ ملله يظهر فى ضروب شتى ، لعل أقساها عنده هى تلك الكلمات التى يكون لها فى تلك النفس البائسة المرهفة — التى ماعرفت للراحة طعما ، ولا للحنان مذاقاً — وقع ، وأى وقع ، إن دونه وقع النبال !. وبدأ يضيق بحياته ذرعاً ، ولولا مسكة من الإيمان بالله وبعدله لكان الآن لايعدو حفنة من تراب يطؤها العابرون ، فتثور غباراً وسرعان ما تهدأ !. ماذا يفعل؟! وإلى أين يتجه ؟ ! والده قد تبرم به ، ووالدته لاتكاد تفى إخوته الحاجة فلا تطاوعه نفسه أن يلجأ إليها ، وليس من اليسير على نفسه أن يلجأ لشخص قريب ! فكيف ؟ وإلى أين ؟! ، وعلام استقر ؟ ! لاشىء سوى أن يخوض الحياة ، ويقتحم خضمها المتلاطم .

فترك منزل والده ، وفى إحدى المدن الساحلية استقر به المسير ، وأخذ يعمل طول يومه ، فاذا ما أخذت الشمس تضطجع فى أفقها واهنة صفراء ، عاد إلى مأواه لاليستريح ، فما كتبت لأمثاله الراحة ، بل لينكب على دروسه يلتهمها . فما قنع بالعمل دون العلم ، بل اتخذ من هذا وسيلة لذاك ، وتقدم إلى امتحان القسم العام ، ونجح ، وتخلى القدر عنه فى امتحان القسم الخاص . ولم يتطرق اليأس إلى قلبه ،

فقد كان يعتقد أنه يعيش بلا قلب ! حتى وقعت الواقعة فى هذه الأثناء ، وأحب ، نعم أحب ! . أحب بكل مايحويه هذان الحرفان من قوة ونبل وطهر وإخلاص . وهكذا أضاف القدر إلى نكباته نكبة أخرى ، وهل الحب إلا نكبة ؟! وهكذا كان عليه أن يواظب على دراسته ، وهو بين عمله وقلبه ، وهما أمران أحلاهما مرّ ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتصل فيها بفتاة ، ولكنها لعلها المرة الأولى التى يهب فيها فتاة قلبه ! وكان أكبر غبى كما تقول الأمثال ، وهكذا طاش منه الصواب ، وسلب منه الرشاد ، وتشتت منه العقل ، فلم يتمكن من الاستمرار فى دروسه ، فقد سد عليه قلبه مناص التفكير ، فلم يعد يرى شيئاً إلا من خلاله ، وفشل فى تحصيله .

وفى هذه الأثناء اقتنع والده بضرورة إتمام تعليمه ، فوصله منه خطاب لكى يعود فينتظم فى دراسته ، ووجد هذا الخطاب أثراً فى نفسه المحطمة ، فعاد . وقد خيل إليه أنه قاب قوسين أو أدنى من الهدوء والراحة ، ولكنه كان واهماً ...

ففى قلبه كانت تثور أحاسيس متعددة ، وانفعالات متباينة ، أحاسيس شخص اعتمد على نفسه ، ولم يتحمل أن يعيش عالة على آخرين ، حتى ولو كانوا والديه ! فأحدهما راغب غير قادر ، والآخر قادر غير راغب ! . وما كان تعبه الجسمانى الذى لاقاه إلا راحة نفسية ، وهذا خير من راحة جسمانية يتبعها تعب نفسانى ! !..

حنان الأب !..

شاب فى الثامنة عشرة من عمره ، وفى الثالثة الثانوية من تعليمه.. ولاتعجب لكبر سنه وهو مازال فى هذه المرحلة ، فليست هذه غلطته ، ولكن غلطة الرقابة التى كانت حوله ، والتى يعتبرها أمانة فى عنق كل أب يجب أن يكون حريصاً عليها كل الحرص .. وها هو ذا يسرد الهاوية التى يتردى فيها معظم شباب هذا الجيل فيتوظفون «بالابتدائية»..

نشأ بين أب «حنون» وأم «صارمة» وجدة أكثر حناناً من أبيه .. وكان والده — وهو موظف حكومى — ميسور الحال ، يعيش عيشة مريحة طيبة . ترك هذا الابن يلهو ويلعب .. ولم يلاحظه ، فنشأ ضعيفاً فى دراسته ، ينجح عاماً ويرسب عامين .. وكلما وجهته والدته إلى الصواب يجد من جدته حناناً كبيراً .. إلى أن حصل على الشهادة الابتدائية بعد دروس خصوصية . والتحق بالمدرسة الثانوية فلعب ولم يجد يداً حازمة تدفعه فرسب ثم رسب .. ونقل والده إلى صعيد مصر ، وفى ذلك الجو الهادىء أخذ يجتهد بدافع من شعوره حيث نجح فى العام الثانى ، ورسب فى العام الثالث لأسباب عائلية .. وها هو ذا اليوم يكد ويكدح ، وذلك عندما استيقظ فجأة فوجد نفسه رجلا.. بجوار والده يصلح لأن يكسب قوته بكده . استيقظ فجأة فوجد رفاقه فى الجامعات !..

وهو الآن نادم ، حيث لاينفع الندم ، ويتحسر حيث لاتنفع الحسرة ، ولكنه وضع شيئاً واحداً نصب عينيه ألا وهو « الأمل » ... وضع أملا نصب عينيه وسينظر إليه ، ويناضل ويكافح حتى يبلغ مراده ويصل إلى هدفه بقوة وعزيمة وإيمان بالله ...

* * *

يا بنى !

تقدم واقفز مادامت همتك قد استيقظت . فيقظة الهمة هى موسم النجاح فى أى سن كانت . والعلم لا ينتهى دوره إلى الساعة .

وقد رأينا على مقاعد الدرس فى « السوربون » رجالا ونساء فى الستين والسبعين بل والثمانين من العمر ، جاءوا ينهلون من المعرفة ، ويستمعون إلى سدنة العلم ، ويملأون عقولهم وقلوبهم من النور الأعلى ...

وإنك لتجد كاتباً من أعظم كتاب فرنسا وهو « أناتول فرانس » لم يبهر العالم بقصته الأولى إلا بعد أن جاوز الأربعين ...

وكذلك إنك لتجد الرجل الذى أشرف على إخراج الطبعة الرابعة عشرة من دائرة المعارف البريطانية وهو « شارلز جارفن » ليس من خريجى الجامعات !...

هذا المعلّم الأوّلى ! .

تخرّج « ك. م. س» من المدرسة التى تخرّج لهذا الجيل من يضع اللبنات الأولى فى بناء شباب الجيل ويكونون أسس مدينة المستقبل ودولة الجيل المقبل . هؤلاء الذين وضع الوطن بين أيديهم أعز أمانيه فى تنشئة جيله الجديد .

يقول علماء الاجتماع إنه لا الأب ، ولا الأم ، ولا الوطن ، يؤثر فى الطفل ويغرس البذرة الأولى فى تكوينه الخلقى ولكنه المعلم . فالمعلم بيده أن يجعل من الناشئة جيلا متمرداً ثائراً ، أو جيلا ضعيفاً خائراً ، أو يملأ نفوسهم حقداً على المجتمع ، ويزكى لهيب الثورة بين جوانحهم ، أو يقيم معوجّهم ويصلح فاسدهم فيصبحون طليعة قوية سليمة لأمة فتية تحث الخطى إلى المجد .

ويقول علماء الاقتصاد يجب أن نريح صانع الأحذية ونجزل له العطاء فيخرج نعالا حصينة مريحة ، وأن نجزل العطاء لكل من نكل إليه صنع أية بضاعة إذا أردنا لها الإتقان والإحسان . فماذا فعلنا فى صانع أثمن بضاعة لدينا ، ولدى الوطن ، ولدى الله ، أجل ولدى الله الذى فضل الإنسان وأراد له أن يكون سيد المخلوقات جميعاً ، سيد البضاعة كلها — بلغة الصناع — .. نعم يجب أن نتكلم لغة الصناع وننسى قليلا لغة المعلمين ، فقد انتهز المتعلمون الفرصة وخدعوا معلميهم ، وإلا فكيف

تعلل أن يظل المدرس طيلة الأجيال يعلم كل إنسان كيف يطالب بحقه ويفتح ذهنه لذلك حتى ضاع هو فى غمرة الزحام . وهاهم أولاء عبيد الأرض قد تحرروا ومن بعدهم عبيد الآلة ولم يبق من دولة العبيد التى انقرضت إلا عبيد الأطفال ! ! همعبيد لافى دول الديمقراطية الرأسماليين ، ولا فى دولة طبقات كتل البروليتاريا التى تعترف أول قوانينها أنها دولة قوامها الفلاحون والصناع . كما خدع الأمراء عبيد الأرض فى غمرة من الادعاء الكاذب بأنهم أسياد،وأنهم من دم آخر خلقوا لحماية الضعفاء والعبيد والسيادة عليهم. وكماخدع الناس أصحاب الحكم الفردى المطلق الاستبدادى الذى عفى وزال بأنهم ورثة الخالق فى المخلوقات وظل الله على الأرض . خدعوا بهذا المحكومين واستبدوا بهم ، وكما خدع الرأسماليون العمال وخدعوهم بفكرة أنهم لايخدمونهم ولكن يخدمون الوطن،وقصروا خير هذا الوطن على رفاهيتهم وسرفهم . وكما خدعت الدول القوية الدول الضعيفة تحت ستار كاذب من الإنسانية ونشر حقوق الإنسان أو النهوض بالطبقات الكادحة ضد البرجوازيين فاحتلتها ، كما حدث هذا كله بالضبط ، حدث أن خدع الكل صناع الأطفال صناع الجيل ، صناع الأرواح ، تحت ستار الوطنية والدين والأجر الذى من الله وكرامة المهنة .

وإلا فتعالوا — ياشباب الجيل — ننظر ماذا فعل المجتمع المصرى على الأقل لصانع الأطفال بجانب ما فعل لصانع الخزف ، وصانع الأقفال وصانع السلال ، وصانع النعال .. فها هوذا الآن مدرس بمدرسةأولية نائية خضع لأوامر التفتيش وترك مدينته وأهله وارتحل إليها . سكن

هذه القرية فى بيت ريفى متطامن ، وشارك الفلاحين الفقراء عيشهم . يبيت فى مساكنهم التى لاتعرف النظافة ، والتى طالما نصح الأطفال وأفهمهم أضرار العيش فيها ، وملأ قلوبهم ثورة على قذارتها التى أضعفتهم وأنهكت قواهم . آملا أن الريف المصرى يرتقى فى المستقبل على أيديهم عندما يكبرون ويصبحون رجال القرية ! ثم إنه يسافر ليجلب الخبز من بلدته كل أسبوع ويدخل المدرس — على جلاله وعلو شأنه — يحمل أثقال زاده على كتفه، فليس فى القرية حمالون ! ويأكل المدرس وينظر الفلاح من أى شىء يتكون طعام هذا المدرس ، وعندئذ يرفع كفيه إلى الله داعياً لآبائه وأجداده بالرحمة وحسن الثواب. فقد كانوا — رحمهم الله — فى منتهى العقل والحكمة لأنهم لم يعلموه، فضمن أن يعيش فى دولة الجهال على أحسن حال . هو فى بيئة لاتحترم إلا الذهب ، ولا تسجد إلا للغنى ، يقوّمون فيها الإنسان بمقدار ماتزن نقوده ، والمدرس من هذه الناحية ضئيل الوزن، بخس القيمة . ولا سيما مدرس الأطفال . لذلك لاتعجب أن ترى أصغر فلاح وأضأل أجير لاينظر إليهم بعين الإكبار التى سمعنا بها . كان ينصح طفلا فى القسم الليلى جاءه وهو ينفث دخان سيجارة أن إخوته أولى بهذا القرش من الدخان، وخصوصاً أن كسبه قليل لايفى بهذه النفقات ! فما كان من شاب فى آخر الصف إلا أن قال فى صوت خفيض: «والله يا افندى دا مكسبه بماهيتين ! !» فظن آخر — عندما سكت «الأفندى» — أنه لم يسمع فقال له : «أى والله دا بماهيتين من ماهيتك ! » ثم ثارت عاصفة من الضحك والاستهزاء ولكنه .. صبر ...

إنه لايملك إلا أن يخدم نفسه بيده فى غربته ، ومرتبه يكاد يكفيه . فالحكومة الرشيدة والحكام الجالسون على المقاعد أبوا – لحكمة فى أنفسهم – إلا أن يجعلوا مرتب المدرس الأوّلى ، أى مدرس المرحلة الأولى ، أربعة جنيهات عند بدء التعيين ؛ أى إن طفل الابتدائية يزيد عليه . هذا بعد أن ظل يكدح ست سنوات درساً وتحصيلا فى مدارس المعلمين ، ودرس مايدرسه طالب التوجيهى من طبيعة وفسيولوجيا وجغرافيا وتاريخ ورياضة الخ والفقه والدين والقرآن وعلوم الشريعة كأبناء الأزهر . وسنتين تربية وعلم سيكولوجية الأطفال ، وطرق خاصة للتدريس وتربية نظرية وعلمية ، ثم يخرج معداً الإعداد الكامل فيأخذ أربعة جنيهات !. إنه يشتغل فى مدرسة ، ولا تعجب إذا علمت أن فراش المدرسة يقبض ستة جنيهات ! ! زد على ذلك عمله الخارجى الذى لاتقف كرامة العمل واحترام الوظيفة عائقاً فى سبيله ، وهو لذلك يحتقره . وتلاميذه الأميون بالليل أقلهم – وهو الذى يرش الطريق الزراعى بالماء عند الظهر ويستريح طول اليوم – يتناول مرتباً شهرياً ستة جنيهات أو تزيد . فما قيمة هذا العلم الذى لقنوه ، وتلك الحياة التى أعدّوا لها إذا كان يشتغل معه أربعة مدرسون بثانوية الأزهر ، وهو إعداد ليس يحتقره ، ولكنه ، فى رأيه ، ليس إعداد المعلم ، إنه معدّ لمهنة أخرى . ثم « شهادة الصلاحية » التى يشتغل بها معه رجل كان بقالا ، والثانى كان تاجر عطر متنقلاً لايدرى من أمور التعليم والعلم شيئاً .

أنظرت إلى مرتبه الهزيل ؟ وإلى ماتقتضيه كرامة المهنة وأهمية العبء الملقى على كاهلهم ؟ وكيف يريدون أن يبدوا أمام الناس وأمام الأطفال [

فى ثياب مناسبة ، وبمظهر كريم مع هذا المرتب الضئيل ؟!

ثم المجهود الشاق الذى يتناول لقاءه هذا المبلغ الشهرى الطائل . إذ حسبه أن يضبط نظام الأطفال المحشورين بالفصول ومنهم من لايزال يبول فى ثيابه ! وفى فترة الظهر ينقلب المدرس « سفرجياً » بأمر المدرسة يوزع طعام الأطفال عليهم بالقسطاس المستقيم ، فاذا انتهى التوزيع أراد أن يذهب إلى منزله ليتناول طعام الغداء بعد أن ضاع منه مايقرب من ثلث الساعة من وقت الغداء والراحة المقررة له وهو ثلاثة أرباع الساعة ! فيطلعه الناظر على الأمر الصادر من « المنطقة » أن عليه أن يجلس للمراقبة حتى ينتهى الأطفال من الغداء . هذا مع أنه غير مسموح للمدرسين أن يتناولوا من طعام المدرسة كمدرس الابتدائى أو الثانوى ، وهم مستعدون أن يدفعوا الثمن ، وإلا فمن أين يتناول — هو الذى بح صوته وجف حلقه من شدة الصياح — طعامه ؟! يقول الناظر إن المفروض أن يأتى بطعامه معه ، وهو يفضل الجوع على أن يحمل طعامه فى منديله تحت إبطه « كأنفار الدودة » ، تنتهى الحصة السادسة والسابعة ، وهو يدرس فى الأسبوع ٣٤ حصة ولعله أحسن من غيره ، بينما مدرس الثانوى والابتدائى يشتغلون ١٢ حصة ، وأن يعطى جميع الأنواع « كشكول جميع العلوم » مكوك متنقل طول النهار فى أدوار المدرسة وفصولها حتى ينقضى النهار ، فيخرج جائعاً بعد أن تآمرت الحكومة على إرهاقه وإذلاله بأن تأمره أن يطعم الأطفال ويشاهدهم يأكلون وأمعاؤه تتلوى من الجوع ، بعد عمل شاق ، ثم يذهب إلى منزله متعباً مكدوداً لتواجهه مشاكل التحضير وتصحيح الكراسات ،

إنه يصحح يومياً مئات من كراسات المواد المختلفة لأعمارٍ وخطوطٍ وفرقٍ متعددة ، وكأنه يكتبها من جديد !. وأمامه أيضاً أن يعد طعامه وينظف حجرته ، ويغسل ملابسه المتسخة ، ويخرج لشراء الفول والبصل وقطعة الجبن من البقال ، وطهى الطعام ، وتنظيف زجاجة المصباح وغسل الأوانى التى اتسخت بالتراب والماء ، ثم يدق جرس التعليم الليلى ، فيخرج على عجل ليواجه شباناً ورجالا من جميع المهن أتوا لاليتعلموا ولكن ليسخروا من المدرس وينالوا من كرامته ، وهو فى وسطهم مسكين بح صوته ولكن فى أرض لا يثمر فيها مجهود ، وتواجهه فى القسم الليلى مشاكل يتعب من سردها ويكل". ويتناول جنيهين على هذا المجهود الشاق الذى يفوق العمل النهارى مع شدته أضعافا مضاعفة ، إذ أن الواجب أن يكون مدرساً وعند اللزوم «فتوة» يحفظ الأمن فى الفصل ويحمى أرواح هؤلاء الكبار تماماً ! كما هو مكلف بحماية أرواح أطفال النهار . ولكن وزارة المعارف تخدعه بتسمية الجنيهين «مكافأة» وليست «مرتباً» . وأنها خدمة اجتماعية لمحو الأمية من هذا الوطن ، وليس له حق الرفض فانه مجند !! ثم ينصرف فى العشاء إلى المنزل ليكدس أحمالا من كراسات القسم الليلى تطلب التصحيح فوق أعمال النهار ، ويسهر فى ضوء المصباح الخافت فى التصحيح والتحضير لليل والنهار ..

أما حياته الجنسية فانه لايرى مرتبه يكفيه أبداً للزواج والنفقة على أولاد ؛ إذ أن المرتب لا يكفيه وحده للظهور بالمظهر اللائق ومتابعة الحركة الفكرية والثقافية اللازمة لمدرس ، لذا فإن أغلبهم عزاب مع حاجتهم

الشديدة إلى الزواج وإلى الراحة فى أحضان الفضيلة ..

* * *

ستلقى هذه الصيحة حظها من الدوىّ والتأثير . فهى صادرة من قلب كليم يخفق بحب بلاده ، وإن قلباً فتياً يخفق بعجلة ووجيف لخليق أن يستجاب من هتافه ماهو حقيق بالاستجابة ..

لكننا لا نحب منه أن يزرى أو يزدرى الخدمة الاجتماعية الكبرى التى يؤديها فى مكافحة الأمية مهما كان الأجر الذى تمنحه إياه وزارة المعارف نذراً يسيرا ، فانه « مجنـــد » روحى حقاً ، وينبغى للجنود فى ساحة القتال ، أن يؤدوا واجبهم — ولو لاقوا حتفهم — وألا يسألوا عن أجرهم ...

كذلك فليغتبط بأنه فى ميدان الأمية من المجندين

فليطمئن إذن ، وليستروح . إننا حريصون على إرضاء المعلم الأول والمعلم الثانى والمعلم الثالث جميعاً ، فهـــذا حق لهم غير منازع .. وسينالون حقهم كاملا ، ولو بعد حين ، إذا أدوا واجبهم كاملا ، وسيؤدونه إن شاء الله .

رأى برهان ربه!

فى تلك الليلة عندما تنساب النفوس إلى السموات طالبة الرحمة ، وعندما تتحرر من رق الدنيا إلى صفاء الأبدية ، فى تلك الليلة ... ليلة عيد الأضحى ، تعرّف إليها... امرأة جميلة لم تكن قد جاوزت الخامسة والعشرين .. تراها فتقول إنها أسعد خلق الله ، وهكذا حسبها الناس .. لم تشك لأحد ، ولم تظهر أنها تتألم .. وفى ليلة العيد ذهب « د » لزيارتها ، لايحمل فى نفسه ، إلا مايحمل كل شاب مثله لفتاة أو امرأة .. جلس وجلست أمامه ، ونظرت فأشعلت ناراً فى قلبه ، وابتسمت فزادت من صبابته .. كلما تلاقت عيونهما كانت تسدل جفنيها فى خفر وحياء يزيدان من خفتها وفتنتها .. كلما حاولت أن تتكلم كانت الكلمات تموت على شفتيها ، وكان يرمقها بعين زائغة وقلب واجف .. يريدها أن تقول ، أو تقدم ما يشجعه على الإقدام .. يريد أن يلمس منها مايدعوه ليلقى بنفسه فى جحيم أنفاسها الملتهب .. ولكنها لم تفعل . وتحدثا .. إلى أن وصل الحديث عن زوجها ، فلاحظ التغير بادياً على محياها . ولم يلبث أن تجهم وجهها ، وانفعلت ، فأدرك أن حياتهما الزوجية تخفى وراءها مايثير الشك . وحاول إيضاحاً لذلك ، ولكنها كانت تتملص بأى وسيلة ، وأخيراً حدثته عن حياتهمابالتفصيل فكانت كل لحظة وكل دقيقة عذاب مستعر لتلك المسكينة .. لقد كانت البخور المحترق الذى يتصاعد من القلب المعذب إلى أعالى

السماء ، ليرفع إلى الله شكوى العبيد من العبيد .. !

تزوجت وهى فى الخامسة عشرة حين كانت جاهلة لاتدرى من مآرب الحياة شيئاً . كانت بريئة طاهرة كالزنبقة ، من شاب ثرى ، وشيعها الناس إلى بيت زوجها ، ظانين أنها ستكون سعيدة ، ولكنها وجدت سلسلة من الشقاء المستمر .. تزوجت منذ عشر سنوات ، ولكنها لاتزال عذراء .. نعم عذراء .. فى كل ليلة عندما كانت تراه بجانبها كانت تختنق فى دموعها . كانت أنفاسها المحرقة تخرج من قلب معذب ، وجسد يحترق .. تشكو إلى زوجها فيردها إلى حيث تمعن فى دفن نفسها .. وكانت فى كل ليلة تتلوى على فراش الحرمان . فقد كانت امرأة ناضجة ولكنها لاتجد من يقطفها . أينما سارت . وحيثما ذهبت لاتجد أمامها إلا مايذكرها بأنها تعسة شقية محرومة ... كان يحز فى نفسها عندما ترى أما ترضع طفلها ، فهى تشعر بروح الأمومة المنبعثة من صميم كيانها ولكنها لم تجد لها باعثاً .. كانت تقدم شفتيها لزوجها متقدتين بنار الشوق ، واللوعة ، والحنين ، تفوح منهما رائحة الرغبة الصارخة . ولكنه كان يردهما ببرود ..

هكذا عاشت وكافحت وصبرت . وأبت الأقدار إلا أن تسلط عليها تياراً من التجارب المخيفة . فكل شاب يتمناها ، وهى تعرف ذلك . ولكنها كلما شعرت بأنها ستتخطى عتبة الزوجية ، كانت تجد من ضميرها مايروعها ، ويردها إلى حظيرة الزواج المقدس . وكلما شعرت بأنها أضعف من أن تقاوم ، كانت تهرع إلى الله لتجد فيه خير حفيظ .. وكم يدهشك عندما تعلم أنها قد شكت إلى أهلها وعرفوا ماتقاسيه ابنتهم من عذاب وحرمان ، ولكنهم أفهموها أن تبقى بجانبه

زوجها . وهكذا بين أهلها وزوجها عاشت عشر سنوات لتدفن نفسها وتحرق زهرة شبابها بين طيات التقاليد وتعسّف الزوج والأهل .

نظر إليها وقد بح صوتها ، وامتزجت أنفاسها بدموعها المنهمرة . كانت تتكلم وهى ترتعش رعشة المحموم . كانت شبه نائمة وقد ألقت بذراعيها على صدرها المشتعل . وكانت الغلالة أصغر من أن تستر مفاتنها ، فانحسرت عن نهديها المتراقصين ، وكانت عيناها فى شبه إغفاءة حالمة . إن كل مافيها يصرخ .. ويعلن أنها امرأة جائعة ، وهو شاب ، فماذا يعمل ، وكيف الهروب من هذه التجربة القاسية ؟ ! أيقدم .. فينزلق من سماء الطهارة إلى حضيض الرذيلة ، ليصحب معه هذه المسكينة المعذبة ..؟ ! أم يحجم .. وكل ماحوله يدعو إلى الإقدام . وتلبية نداء روح معذبة .. وجسد جائع ..؟ فأولهما حرام .. والثانى .. صعب .. وهكذا كانت تتجاوبه الوساوس والأفكار ، عندما اخترق الفضاء صوت المؤذن للصلاة .. يردد .. الله أكبر .. ! .. الله أكبر . ! ..لاإله إلا الله .. ! .. فودعها .. وخرج إلى المسجد .. حيث كانت قلوب المؤمنين خاشعة واجفة .. وكانت نفوسهم تنساب نحو الملأ الأعلى .. يرددون .. الله أكبر .. الله أكبر .. ! ..

. . .

حقاً إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . «لقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين »...

لعل الله يابنىّ قد أراد أن يجمعها بك فى الحلال ، والحلال بيّن والحرام بيّن .. فصبر جميل ، والله المستعان .

تنكر له ثم تستعينه !! . .

توفى أبوه عن قليل مال ـ شأنه فى ذلك شأن من هم على شاكلته من أولئك الذين يتعجلهم القدر وهم مايزالون على أبواب الحلقة الرابعة ـ عن أرملة وأختين وجنين جاوز الشهر السادس فى أحشاء أمه . ولم يكن صاحبنا قد بلغ الثامنة إذ ذاك . فكان لموت أبيه الأثر الأكبر فى تغيير مجرى حياة هذه الأسرة المنكودة . فأدخل المدرسة الابتدائية ، إلا أنه ما كاد يصل إلى نهاية المرحلة الأولى إلا وقد تنكرت له الأقدار وحالت دون إتمامه إياها ، رغم مابذل من مجهود فى سبيل إقناع من بيدهم الأمر حيث لا يهمهم من أمره شىء . أولئك القوم الذين حكمتهم الأيام وولتهم أمره بعد أبيه. فذاق على أيديهم الأمرّين: «مرّ الأيام ومرّ اليتم» فكان التشاور يدور فيما بينهم على مستقبله دون أى اعتبار لميوله . ولكم كان يحز فى نفسه أن لاقدرة له على الاعتراض أو إبداء الرأى !..

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود!

وحتى رأى أمه أغفلوه؛ تلك الأم التى كانت تأتمر بمشيئتهم وتستكين لحكمهم. وأنى لها أن تعترض وهى نفسها فى حمايتهم وتحت رعايتهم. ناهيك عما كان بها من حب للمال ، تبحث عن طريق جمعه ، حتى اهتدت ـ وبئس ما اهتدت ـ إلى الأسلوب الدنىء للكسب.. الربا !! فتلبدت

عاطفتها واندفعت فى ذلك الطريق تجمع القروش وتكتنز الجنيهات ، مقتـّرة عليه وعلى إخوته أشد التقتير ، ضاربة بأمر مستقبله ومستقبلهم عرض الحائط ، مسلمة زمامها وزمام أبنائها إلى إخوتها الذين منهم ــ وياللأسف ــ الطبيب ، والمحامى ، والتاجر . وأخيراً قر قرار كل منهم على أن يتعلم فناً من الفنون ليكون له من فنه صناعة تكفيه غائلة الفقر وجور الأيام . فاقترح أحدهم فن الطباعة ، والثانى فن الكهربا ، واقترح الثالث فن الميكانيكا . ولم يتخذوا قراراً نهائياً الأمر الذى جعله ككرة فى محيط تتقاذفها الأمواج ؛ فتارة تقترب به إلى الشاطىء ، وأخرى تعيده . لا يعرف لنفسه مستقراً ولا لحياته مجالا ، مما جعله يفكر فى توديع الحياة وما فيها ، إلى أن شاءت الأقدار أن يكون لتخبطه نهاية . فلفظه مسقط رأسه ، ونزح إلى القاهرة سعياً وراء عيش شريف ليستعين به على مواجهة الأيام ، بعيداً عن أولئك القوم الذين أعجزهم تدبير أمر مستقبله . فسار فى ظلام دامس ليس فيه قبس من نور يهديه سواء السبيل ، ولا سلاح بيده يطرق به الأبواب . فيذرع شوارع العاصمة الزاخرة بجموع الناس ذهاباً وإياباً ، وهو يتضور جوعاً يحدوه الأمل فى العثور على غايته . وتقدم بطلبات عدة ، ولجهات عدة ، عله يفوز من إحداها بأمله المنشود ، إلى أن التقطته إحدى الشركات الأجنبية ، فكان فى ذلك عزاء لنفسه ، وسلوى لقلبه ، كاد ينسى به مرارة الأيام السابقة ، فقام بعمله خير قيام ، وأدى واجبه خير أداء يدفعه إلى ذلك خوفه من الخيبة ، وعودته مقهوراً ، مما أناله رضاء رؤسائه كاملا ؛ فقد كان الموضع عنايتهم ورعايتهم . إلى أن شاءت

الظروف أن ينبأ فى أحد الأيام – بعد مضى أكثر من عام – بتوفيره لقلة العمل ! ! وما كان ذلك بالأمر الهين عليهم . مادت به الأرض ودارت به الدنيا وأظلمت الكون فى عينه . وفقد ثقته بالحياة ، أما إيمانه بالله فتمدعاوده بعد لأى لسبب لا يعرفه ، فراح يبحث عن سلوى أو تسلية يلهو بها ، ويقضى يومه فى مرح ، ملقياً همومه وما به على خالقه ! ورغم كل محاولاته ، فقد كانت تعلو سحنته مسحة من الكآبة ، وشعر أن به رغبة فى البكاء ، فانزوى فى مكان ما وحاول البكاء فلم يستطع . فقد تحجرت الدموع فى مقلتيه ، وعبثاً حاول أن يسرّى عن نفسه . وما إن بدأ الليل حتى وجد نفسه يزحف إلى حجرته المتواضعة الأثاث ، حيث ارتمى على فراشه منتظراً مايخبئه له القدر فى الغد . وحاول النوم ، ولكنه لم يغمض له جفن فى ليلته هذه . بدأ النهار يرسل أضواءه ، وسمع طرقا خفيفاً على باب حجرته ، وكانت عادة الجيران إيقاظه فى الصباح للذهاب إلى عمله ! . ففتح باب غرفته فاذا به يجد ابن الجار وبيده خطاب له ، فعجب لأن صلته بأهله مقطوعة . وإذا بدموعه تنساب من عينيه أن رأى إحدى المصالح الحكومية تدعوه للنظر فى أمر تعيينه ! وعُيِّن ، وبدأ عمله ، وهو على خير ما يكون ، واستقرت نفسه واطمأن باله . وما ذلك إلا بفضل الله . وعاد يفكر فى رفع مستواه العلمى بالدرس والتحصيل ، محاولا بذلك تدارك مافات . فراح يستمد الرأى من أصحابه إلا أنه لم يكن هناك من يصدقه . فقد أقيمت فى وجهه الصعاب . فوقف حيث وصل . إلا أنه لم يكن راضياً عن نفسه ، فعاوده الحنين ، ودبت فى نفسه الرغبة ،

فلم يستشر أحداً . ولما كان باب الانتساب إلى جامعتنا مغلقاً فى وجوه أمثاله، فقد طرق باب الجامعات الغربية حيث لا قيد ولا شرط، والتحق بإحداها عن طريق المراسلة وقد قطع الشوط إلا قليلا مما أثلج صدره وجعله يرضى .

ودارت عجلة الأيام ، وانفرط عقد الإخوة كل إلى حياة خاصة بعد أن كانت تجمعهم حياة واحدة . وأضاعت ظروف الحرب ماجمعته أمه من مال حرام ، استخلصته من دماء من اضطرتهم ظروفهم إلى أن يمدوا إليها أيديهم . وألقت بها الأيام فى عرض الطريق ، تسأله الصفح والغفران . وتطلب المساعدة والعون !. وهو يقول إنه سيمنحها إياهما بفمه ولكن قلبه الذى رانَ عليه ما قدمت يداها يأبى عليها هذا الصفح ويجحدها الغفران! حيث يتملص منه ويراوغه. ويناديه صوت من أعماق نفسه : أتنسى الكأس التى جرعتك إياها ؟ أتنسى أنها المسئولة الأولى عن ضياع مستقبلك ؟! هاهو ذا قد حان وقت التشفى !!. إلا أن ضميره يؤنبه فيهتف به : هذه «أمك» ويدعوه أن يتمهل ولا يتعجل وألا يتخلى عنها . وإن أشد أنواع الانتقام هو العفو . ويسألنا : هلا نراها تستحق هذا العفو ؟ أم تستحق تلك النقمة التى تسبب فى نفسه ثورة ، ومن قلبه ناراً تضطرم بين ضلوعه !!

. . .

ونحن نقول له قول الله تعالى : « وأن تعفو هو أقرب للتقوى » .

زوجة الدرجة السابعة ! . .

هى شابة، وجميلة ، ومتعلمة، كانت فى الجامعة من المعدودات ذكاء واستعداداً ، وربما كانت فى يومها من أجمل الطالبات .. لم تفتتن بنفسها. ولم يأخذها الغرور للإلحاح الساحر على أذنيها بأنها جميلة ، وأنها رشيقة . أخذت الحياة على أنها جد ، فأتمت واجبها ، لتستريح . عملت فى الجامعة فى عام واحد ، ماتعمله أترابها عادة فى عامين ، كانت فى العلم تثب وثوباً ولا تخطو على مهل. كان عقلها الراجح يهيىء لها النجاح ، وكان ذكاؤها الثاقب يهيىء لها الوثوب، ولم تكن ترى فى أثناء طلب العلم إلا العلم. سدت أذنيها عن نداء الشباب، ولم تطوع للفتنة قيادها ...

ثم جاء القدر بعد ما أتمت علومها ، جاء يقترح عليها حياةشريفة هادئة فى ظل الزوجية . وكان ذلك استعدادها أن تصون جمالها فى حرمة زواجها ، وأن تجعل البيت مملكتها .

وكان الذى تقدم إليها شاب فقير . كان مجاهداً مثلها . كان فى الدرجة السابعة ! فلم يقشعر بدنها . ولم تستشر مرآتها . ولم تأخذ شهادتها بيمينها تلوّح بها . لم يأخذها غرور ، ولم تنفرها فتنة عن ذلك القاصد الكريم الشاب الفقير ...

قالت لنفسها : وماذا بعد ؟.. ماذا بعد العلم ، وبعد الجهد ،

وبعد الجهاد ؟! ماذا يأتى بعد الغد ؟ أليس مصير المرأة الزواج ؟! أليس مصير المرأة المتعلمة هو البيت ، كالجاهلة سواء بسواء ؟! ثم إن هذا العلم سينفع ولدى . ويشد أزرى فى تربيته . ثم أليس من الخير أن أبدأ حياتى مع شاب مجاهد مثلى من أن أنهيها مع شيخ انتهت حياته أو كادت ؟!! ثم أليس من الخير أن أقطع الطريق على نفسى ، وعلى غيرى ، فلا أندفع فى غزل أو هيام إذا عرفت مبدأه فلا أعرف منتهاه ؟ !

وتزوجت من الدرجة السابعة وبدأ لون من الحياة له لذته، وله عذابه . ولم تعد الطالبة الحرة فى وقتها المنصرفة إلى عملها ، بل وجدت أن مشاغل البيت أعباء . ورأت العلوم التى حذقتها تتطاير منها تحت تكاليف العهد الجديد . إن الحياة الضيقة تتطلب صبراً وجلداً ودقة فى الإنفاق وحساباً عسيراً لكل مايخرج من اليد . وكان الحساب يزداد كل يوم عسراً لأن النفقة تزداد كل يوم اتساعاً . فالحياة المعيشية فى غلو مستمر وارتفاع . ثم ولد لها ولد . ثم ولدت لها بنت !..

وأصبحت الدرجة السابعة حقاً مشاعاً لأربعة الأنفس . فحذفت من برنامج البيت كل لون من الترف ولو كان السينما التى لاتتكلف إلا بضعة قروش . وحذفت فستانها الجديد . واستغنت عن حذاء موضة . ولم تعد تعرف شاطىء البحر . ولا الخروج يوماً فى الأسبوع إلى الخلاء والهواء ! !

إن أربعة أفواه تنتظر طعاماً ، وغذاء . وما أصعب ، وما أغلى غذاء طفلين !.. فهو غذاء كالدواء . وقلما يمضى أسبوع دون أن

يكون غذاء الطفل دواء على يد الطبيب ...

ضاقت بالحياة ذرعاً ، إن خمسة عشر جنيهاً – على أقصى تقدير – هى مرتب زوجها مضـــافاً إليه علاوات الحرب وغير الحرب والعلاوة الاجتماعية .. لاتكاد تكفى القوت الضرورى ... لم تجد عملا يتفق مع مواهبها . ولكنها قبلته مضطرة : أن تكون عاملة تليفون ! لكن هذا المرتب الزهيد الذى تتناوله إنما تتناول نصفه المربية التى تتعهد ولديها . فماذا بقى لها من النصف الآخر وهى تستهلكه فى أجور المواصلات ، وفى كىّ فستانها ، أو شىء من زينتها حتى لاتنفر الذين حولها ...

وقد أصاب الولد مرض الحصبة .. ثم أصاب البنت .. لكن المربية الخادم لم تكن حريصة على مريضها حرص الأم فعرضت الولد للهواء. فكانت النتيجة أن امتد مرضه ، واشتد ، وتطلب علاجاً طويلا وعذاباً أليماً ، وإنفاقاً متواصلا .

وكان عندهم بيت صغير باعوه فى هذه الأزمة ، تفريجاً . ورأت أن الثمن صار كل يوم يتناقص ، ورأت أن كل الناس من حولها يتاجرون ويكسبون . فماذا تصنع ؟ !

لقد فكرت فى شىء يجعلها لاتغادر بيتها لترعى ولديها بنفسها وقد كان : فاستقالت من عمل التليفون . واقترحوا عليها أن تشترى زبدة وتسيحها وتبيعها سمناً . أو هذا ماخطر لها . عمل بيتى مستور لاخوف منه ولا غبار عليه . فعملت . فكانت النتيجة أن القروش بدلا من أن تزداد تناقصت ، لأن العملية كانت خاسرة . فاليست الزبدة التى

تشتريها بالنقية دائماً، ولا بد من أن تصفيها وتنقيها حتى يكون السمن صافياً نقياً. وكان الرطل يكلفها سبعة عشر قرشاً ! ! وكانت التسعيرة بستة عشر.

ونصحها البعض بأن تغش. أى أن تضيف السمن الصناعى إلى السمن الطبيعى. لكنها أبت. فليس هكذا أخذت عن أهلها ولا عن أساتذتها، ولا عن نفسها، ولا عن زوجها ...

لقد آثرت الشرف مع الفاقة فكيف تغش السمن وتدنس الشرف ؟!

وعرضوا عليها أن تتعهد بوفيه مدرستها. ففعلت. وقدمت المواد الأولية اللازمة للطهى بذمة وأمانة ونظام. لكنهم جاءوها بعد ذلك يقولون لها إنهم يعرفون أنها تخسر ولذلك يعفونها من العملية ! ! والله يعلم ماذا كان السبب ..

إنها تقلب نظرها فيما حولها فلا تجد من النور شعاعاً. لقد اختفت تلك الفتاة الرشيقة المرحة المجدة النابغة التى كانت تتفوق على الشابات والشبان جميعاً، والتى كانت تقفز إلى العلم قفزاً والتى رضيت حياة الشرف والكرامة مع الحرمان والفاقة .. لكن أليس من حقها أن تتساءل: أما لهذا الليل من آخر ؟!

كيف لاتستطيع الفتاة المتعلمة أن تنال من دهرها غير الحيرة والحرمان، وغير بيت ضيق صغير. وولد على ذراعها اليمنى، وبنت على ذراعها اليسرى ؟! كيف لايتاح لها أن تعرف ذنب الدرجة السابعة فى أن تظل على هذا الرزق الضيق الصغير ؟! كيف لاتتمكن من أن تتذوق طعما للعيش الرغيد فى ظل المعرفة، والكرامة والشرف ؟!

خواطر ضابط بوليس

« م. ا. ا. » ضابط تخرج منذ عام فى كلية البوليس وسرعان ما يشكو !.. الله فى عون الذين سلخوا ربع قرن فى هذه الخدمة ! ! إنه عيّن فى مركز قريب من القاهرة ، ثم نقل إلى نقطة بوليس نائية .

ويعتقد هذا الضابط – وهو لا يزال فى مقتبل العمر وربيع الشباب – أنه ميت حيّ ! : ميت لأنه لا يمتع نفسه بالحياة ، ولأن روح الشباب الوثاب وآماله الواسعة تكاد تخمد جذوتهما فى نفسه «فى نقطته» هذه ! ! وحيّ لأنه يأكل شأن عباد الله من الناس . لقد قضى عليه بالسجن فى هذه النقطة النائية كذا من السنين حتى ينعم الله عليه برتبة «اليوزباشى» فيعين معاون بوليس مركز وهذا شىء يراه بعيداً . ولكن كيف يقضى وقته . إنه – فيما يزعم – يستيقظ صباحا ويذهب إلى « النقطة » فيستقبل بعض « الزبائن الكرام » حتى الساعة الثانية من بعد الظهر ، ثم يثبت نفسه فى دفتر الأحوال بأنه قائم للغداء – وأى غداء ! – ويمكث فى المنزل حتى الساعة السادسة ، ويعود إلى عمله مرة أخرى يمكث حتى الساعة الثامنة ويعود ثانية إلى منزله . ماذا يعمل فى عمله ؟ يحقق بعض الحوادث ، ويمكث بعد ذلك شارد اللب يفكر فى تلك الظروف القاسية ، وهذه اللعنة الأبدية التى تطارد رجال البوليس .

يفكر كيف يستطيع شاب فى سن العشرين أن يكبت حرارة

الشباب الجامح فى قرية بسيطة ليس فيها من يستطيع مجالستهم والاستماع إلى أحاديثهم .

منحته الحكومة يوم عطلة ، كل خمسة عشر يوما ، وهذه العطلة قابلة للإلغاء والتعديل حسبما يراه المدير أو الوزير ، فإذا حان موسم القطن أو الكوليرا أو الفيضان ، فلا مناص من أن تلغى جميع الأجازات أو الراحات ، وبذا يحكم على الشاب الكائن فى هذا المكان القفر بالسجن حتى تنفرج الأزمة .

ويشكو هذا الضابط من أن الحظ يلعب دوره فى توزيع الأماكن والأعمال بين الضباط ، فهذا ضابط محظوظ لا يجيئه الدور ليسافر إلى الريف . وهذا آخر نسيب أو قريب كذلك . أما ضابط الريف فهيهات أن يدركه الدور ليحيا فى العاصمة أو مدينة تشبهها ! ! أو يستمتع أهله بنور المدينة ...

لو أراد أن يصف لنا سكنه لرثينا لحاله ، فهو أقرب إلى العشش والأكواخ ، منزل ريفى قديم ، واسع الحجرات بعضها باللبن (الطوب النيء) والأخريات بالآجر (الطوب الأحمر) القديم المتداعى . إذا كظموا غيظهم وطلبوا إنصافا قامت الحكومة وحاربتهم فى أرزاقهم .

إنه بائس من حاضره ومستقباه . إن كل ضابط بوليس مكمم الفم ، مكبوت الشعور ، وإلا كان نصيبه أقذر النقط فى أقاصى البلاد ! !

هل يستطيع الزواج ؟ يظن أن هذا مستحيل . فمن تلك الفتاة التى ترضى مشاركته حياته القاسية هذه ، تضىء مصباح البترول فى عصر الكهربا ، ولاتغادر المنزل على الإطلاق ، وتسكن أقذر

العشش ؟ إنه أحياناً يفكر فى الزواج ، ولكنه يعود محدثا نفسه أن يترك من يريد الزواج منها لغيره ، ولا يكون سبباً فى آلامها ، فتنعم بحياة المدينة حيث الكهربا ، والماء النقى ، والمسكن الجميل وألوان المسرات ، فحرام عليه أن يجنى عليها كما جنى على نفسه .

يقول إنه إذا ما دخل منزله شعر بانقباض النفس ، فيقضى ليله ساهراً يرثى حاله وحياته البائسة ، مفضلا ترك هذه الحياة .

وناهيك بالحوادث — وما أكثرها فى الريف — وعندما تقع حادثة فى وقت متأخر من الليل ، أو فى الساعة الأولى بعد منتصف الليل فى الشتاء القارس ، ويركب حصانه تعصف به الريح من كل جانب فى فراغ لا نهاية له وهو يسير الهوينا خشية الانزلاق فى هذا الظلام الحالك الأسود حتى يصل إلى مكان الحادث ، وربما يبعد عن مسكنه خمسة كيلو مترات ، فيقضى هنالك كل ليله ، وربما يقضى النهار كله ويعود للنقطة بعد ذلك ليعمل ..

هل ينتظر منه عمل منتج بعد ذلك ، يظن : لا ، وهذا هو الجواب الطبيعى !

إن الطوائف الأخرى التى تتذمر مطالبة بحقوق لها فى الحياة ، لو علمت ما يعانيه ضابط بوليس شاب فى وسط الريف لقنعت وحمدت ما هى فيه من رغد العيش .

إنه يرجو — متحمسا — أن نوجه إلى أولى الأمر نداء عن هؤلاء الجنود المجهولين ، حماة الأمن والنظام فى كل مكان ، يهبون حياتهم رخيصة فى سبيل سلام الآخرين ، وكم استشهد منهم الكثيرون .

ويرجو أن تنظر الحكومة بعين البحث إلى نظام الداوريات بالخيل كيف يقضى الضابط مهما كان من قوة الجسد أربع ساعات راكبا حصانه ، قاطعا المسافات البعيدة وفى استطاعة أى فرد تافه النيل منه فى أى وقت ، وأى مكان .

* * *

إن العمل المتوالى لرجل الأمن يضيّع كثيراً من حقه ومن حقوق الناس . وكذلك ينبغى للدولة أن تنصف بين موظفيها جميعاً ،وتنصف بين أقاليمها جميعا ...

وفى اعتقادنا أن الحكومة مسئولة عن تنظيم حياة رجل البوليس ، بأن تبنى فى كل مركز وفى كل نقطة مبانيها الرسمية ، وتلحق بها مساكن صحية عصرية نظيفة متوفرة بها أسباب الراحة نظير أجر ضئيل فلا يجد ضابط البوليس الشاب فرقا كبيرا بين حياته المنزلية أوالمدرسية فى القاهرة ، وحياة النقطة النائية .ثم إن المساكن الأنيقة من أسباب تلافى أزمة الزواج .

ولعلنا نجد « المباحث الجنائية » وقد عممت فى جميع المديريات ولها إخصائيون فى تعقب الجنـاة ، تخفيفاً عن رجال البوليس ، كما أن دوريات الخيل الليليـة لهؤلاء وقد تحولت إلى مواكب مصفحة من السيارات والموتوسيكلات المسلحة بالأسلحة الأوتوماتيكية السريعة الطلقات . ويكفى هديرها ليبعث الرعب فى قلوب اللصوص والقتلة المختبئين بين عيدان الذرة .. ويشعرهم بهيبة الحكومة وصولتها . وأن من يلقى على رجالها الماء ، تلقى عليه النار ...

كان يتمنى !..

هذا حديث فتى أزهرى ثائر كان يتمنى ...

انقطع آخر وتر فى قيثارة الأمل التى كان يعزف عليها ، فأصبحت الحياة فى نظره خاوية من المعانى ، عامرة بالماديات ، ضيقة كأنها سم الخياط . وانفتح بين يديه قبر فسيح ، والتهم كل ماشيده من أحلام وما خلقه من عرائس المستقبل . أما أنشودته الحية التى كان يترنم بها فى محراب السعادة فقد ذهبت مع الريح وانهار المعبد على العابد . كان كالبلبل الصداح يملأ الدنيا بأهازيجه وشعره ويأبى إلا أن يكون له على كل غصن ابتسامة ، وفوق كل أيكة تغريد ، ولكنهم طاردوه وأمسكوا به وقصوا جناحيه ، وألقوا به فى غياهب قفص مظلم ، وقالوا له : غنّ وارقص !. فرفع عقيرته بصوت مبهم ، فطربوا ولم يعلموا أنها لعنات يصبها عليهم من قلبه المحترق ، وفؤاده المعذب ! !

يالتعاسته ! تكر الأيام أمامه ، وتفر فصول السنة بين يديه ، وهو لايبتسم لابتسام الربيع ، ولا يبكى لدموع الشتاء ، ولا توقظه حرارة الأمل ، وإنما قلبه كله خريف تتساقط منه أوراق آماله . فأفق فؤاده مظلم ، لايطلع منه خفقة أمنية ، ولا بارقة رجاء ، وإنما تغرب فيه كل أحلامه .

أنىّ لقلبه أن يعرف السعادة وهو فى الأزهر ، موهن العزائم ، مثبط الهمم ، قاتل الآمال ، فهو فى جملته قبر يدفن فيه الشباب والحيوية والفتوّة كما يقول .

ويتساءل : هل فى الأزهر من رجاء ؟ يدخله الطفل منهم وكله

آمال فيخرج منه ملبد الأفق بغيوم اليأس . ينتسب إليه ودم النشاط يجرى فى وجنتيه ، ويتركه وقد خط الشيب على وجهه بضعة أسطر .

كان يتمنى أن يكون سياسياً بارعاً ، وفيلسوفاً حكيما ، يذود عن حياض الدين ، ويدافع عن قضية الوطن ، فيهز أعواد المنابر ، وينفذ حديثه إلى القلوب والبصائر ، فيستولى بذلك على المشاعر . وإذا اقتضى الأمر أن ينزل إلى ساحة الوغى كان أول من يطلق القنبلة . أما الأزهر ، فيقول ، إنه يعلمهم الدين والأخلاق صناعة ، ويضرب صفحاً عن التربية الدينية الحقة والوطنية العالية .

كان يتمنى أن يكون صحفياً يكتب إلى القلوب فتزداد خفقاتها ، وإلى المشاعر فيوقظ فيها كوامن العزة والسمو ، فينفعل القارىء ، ويزداد لهيب كرامته ، ويشعر أنه من نسل الفراعنة الأمجاد والعرب الأعزاء ، فيندفع مطالباً باستقلال بلاده بالحديد والنار ، لابكتب ابن عقيل ، وتهذيب التوضيح ، والمذكرات الوافية فى العروض والقافية ؟!

كان يتمنى أن يكون صانعاً يعمر ماخربته يد السنين والحروب فيعيد مجد الصناعة المصرية وتالد عزها .

كان يتمنى أن يكون مزارعاً ينبت ٩٩٪ من أرض الوطن بوسائل القرن العشرين !

كان يتمنى : أن تنشىء إدارة الأزهر متحفاً تحشر فيه تلك الكتب العتيقة والطلاسم البالية ، المحشوة بأبواب الرق والعبودية ، وألفاظ السحر والشعوذة حتى يحج إليه السائحون وهواة جمع العاديات !!!.

أو يشعل القائمون بالأمر فيهم حريقاً يقذف فيه تلك الأحاجى ، ويرقصون حول هذا الحريق رقصة الفرح والخلاص !! ولكن . . .

حديث شاب مؤمن

هذا حديث شاب يؤمن بالله ، يحاول فى كل أعماله وتصرفاته أن يرضى الله ، ولو أن هذا لايمنعه أن يعترف أن الشيطان هاجمه كثيراً ، ولكنه حتى هذه اللحظة ، رده منهزماً بفضل الله ورحمته .

تنبه صاحبنا إلى نفسه ، فى عائلة مكونة من أب وأم ، هو ثالثهما . أمضى مرحلة التعليم الابتدائى متفوقاً مما أتاح له التعليم الثانوى بالمجان .

قدم والده طلباً للوزارة بذلك ، وكان كل أمل الأسرة الصغيرة الفقيرة معلقاً بقبول هذا الطلب ، ولكن الوزارة ، سامحها الله ، وجزاها خيراً — وافقت على منحه نصف مجانية ! ! ورغم ذلك عجز والده عن دفع النصف الآخر ، فقررت أسرته ، مكرهة ، أنه لامفر من أن يغير الصغير طريقه التعليمى ، إلى الحياة العملية مع والده فى عمله الضئيل ، ولم يكن تجاوز الثانية عشرة .

تعاون الأب والابن فى العمل ، فتحسنت حالهم تحسناً محسوساً ، حتى أصبحت حالة صاحبنا المالية الآن لاتقل عن مرتب موظف فى الدرجة الثالثة ، ومن يدرى لو كانت الوزارة عطفت عليه ومنحته المجانيــــة حينئذ ، فلعله كان الآن من موظفى الدرجة التاسعة أو الثامنة ! ! .

وما إن بلغ السادسة عشرة حتى أنبأته والدته بنبأ عجيب : أن والده

الذى رباه والذى يعيش معه ليس بوالده ، إن والده الحقيقى انفصل عن والدته ، وهو فى الثانية ، ولا تدرى أمات أم لا يزال حياً ؟ وأخبرته أيضاً أن له أختاً من أبيه ، ومن أم ثانية ، وكل ماتعرفه عنها أنها كانت تعيش فى نفس البلد ، ثم انقطعت أخبارها .

فوجىء بذلك ، ففكر بعقله الصغير ، ولم يطل تفكيره ، إذ قرر أولا عدم الاهتمام بالبحث عن والده الحقيقى ، لأنه لايريد أن يعرفه . إنه راض قانع سعيد بهذا الوالد الذى رباه وأنفق عليه جهد طاقته وقرر ، وثانياً ، المبادرة إلى البحث عن أخته ، إنه عاش هذا العمر وحيداً بغير أخ أو أخت ، فاندفع يبحث وينقب حتى وجدها أراد أن يضمها إليه لتعيش فى كنفه ، لينعم بالحب الأخوى الذى كان محروماً منه ، ولكنه لم يجد تشجيعاً من حوله ، ولمس مقاومة عنيفة من والدته ، ووجد نفسه عاجزاً لاحول له ولا قوة ، لأنه لم يكن قد كوّن لنفسه شخصية أدة ومادية من ناحية ، ولصغر سنه من جهة أخرى .

وضع نصب عينيه الوصول إلى مايتمناه ، فجد واجتهد حتى أتى اليوم الذى رأى فيه أنه قادر على تحقيق أمنيته ، فأقدم غير عابىء بغضب ولا حقد ، ليرعى أخته ويؤدى واجبه نحوها ، مادام والده المسئول قد ذهب وتركهم لرحمة الأقدار غير عابىء بهم . وحينئذ كان قد بلغ العشرين .

تحققت رغبته بفضل الله وإرادته ، وأتم كل ماكان يصبو إليه ، ويسعى له ، وهاهى ذى أخته قد تزوجت تشرف على تربية

أولادها وترعى شئون زوجها .

أما حياته العامة فقد غمرتها السياسة بعض الوقت ، وضحى وسجن ، وخرج فى النهاية بنتيجة واحدة ، وهى أن أى زعيم فى هذا البلد إن خدمهامرة فانه يخدم شخصه مرات ! ! بل إن أغلبهم قد أضر ببلده أضعاف ماخدمها ، ولذلك فقد صمم ألا يقيد نفسه بهيئة من الهيئات السياسية ، مهما ادعت ، وليخدم بلده فى عمله . ومحيطه العائلى ، وليعاون جهد طاقته من يحتاج للمعونة والمساعدة ، وهو يؤمن فى صميم نفسه ، أنه لو خدم كل شخص بلده فى محيطه العائلى والعملى ، وشارك فى الحياة العامة حراً غير مقيد ، فإنه بذلك يفيد بلده أجل فائدة .

أما عن حياته العاطفية ، فان فيها صوراً قليلة غير مستقرة ما عدا واحدة ، ولكنه لم يقرب المرأة فى حياته . وإذا قدرنا أن صاحبنا نجح فى تحقيق آماله إلى حد الكمال نجد أنه أخفق فى حياتهالعاطفية إلى حد الكمال أيضاً ....

لقد أحب واندفع بكل مافى وسعه من عاطفة حرة ، غايتها الزواج بمن أحب ، وكانت تبادله عاطفته ، ووضع أمله وحياته فى هذا الحب ولكن عندما عرض عليها تحقيق ماتصبو إليه نفسه ، وقف الدين ، ونهضت التقاليد حائلا ، وسداً منيعاً ، إنها كانت تتوق وترغب ولكنها محافظة ، رغم أن هذه المحافظة نادرة فى بنات جنسها . إنها تدرك أن أهلها لن يوافقوا على هذا الزواج ، فكيف تخرج على إرادتهم وعلى تقاليدهم ، فتضعهم بتصرفها فى موقف الخزى والعار ، أمام طائفتهم ؟؟ خضعا فى النهايةلحكم الدين والتقاليد ، وقد مضى حتى

الآن عشر سنوات على بدء هذه العلاقة ، ولكنه يؤكد أن هذه العلاقة كانت طاهرة لم تدنس حتى بقبلة ... تزوج هو، وتزوجت هي، وأصبح والداً ، وأصبحت أماً لأطفال ، وصلته بأهلها وزوجها طيبة ، قد يراها كل شهرين ، وقد لايراها ، ورغم أنهما لم يتكلما عن الماضي بعد ذلك ، ولكن العيون تعبر عن الشقاء الخفيّ ، والألم المكبوت ، والضغط المستمر على العواطف حتى لاتطغى ، وعلى النفس حتى لاتفصح ، فأولادهما هم العزاء الوحيد ، والدافع القوى الذي يدفع كلاً منهما لأداء واجبه نحو من ارتبطت حياته به، ولاذنب له ، يكفى أن يتعذب هذان المحرمان في حق نفسيهما ، وفى حق عواطفهما ، ولتهنأ التقاليد بما جنت ...

الآن وقد بلغ السادسة والعشرين ، فانه يستطيع أن يقول إن حياته طيبة ، وإنه سعيد ، فقد أدى واجبه نحو من كان واجباً أن يؤديه نحوهم ، وبقى عليه واجب أعظم نحو مستقبل أولاده ، ولا ينسى رغم ذلك أن يجاهد فى أن يثقف نفسه من طريق الاطلاع ليعوض مافاته من طريق العلم ، داعياً الله أن يعينه ويقويه على مقاومة عوامل الإغراء والشر ، التي تحيط بالإنسان من كل جانب ، وكلما هاجمته الذكريات بعنفها وآلامها يذكر قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون » . فتهدأ نفسه ويطمئن فؤاده ..

خواطر مهندس فى انجلترا

« م . ع . ع . » مهندس ، يبعث إلينا من نيوكاسل بانجلترا بخواطره ، فيقول فيها :

سألت فيما سألت أن يكشف الشباب عما يفكر فيه ، وما هى حياته العاطفية إن كان له فى العاطفة حياة . وماذا يرجو من عمله وأمله وقومه ؟؟

وقد بدأتم فى تقديمكم للموضوع أن المقصود بالحياة العاطفية هو « الحب » حب الرجل للمرأة ، وحب المرأة للرجل . وليس كل الشباب قد جال فى هذا الميـــدان ، بل لعلنا نوافقه على أن كثيراً من شبيبة مصر قد حُرم هذه النعمة بحكم التقاليد وطريقة الحيـــــاة الشرقية . فاستعاض عنها حباً من نوع آخر هو عنده أسمى مرتبة وأنقى جوهرا فهو حب طبيعته التضحية التى لاينتظر المحب من ورائها متعة . . هو حب المرء لوطنه ، وهل هناك حب أسمى مرتبة وأرفع منزلة من هذا الحب . حب الإنسان للإنسان ...؟؟ !

ويقول إن مثل هذا الشباب ملئوا حيوية ، وملئوا طاقة ، وملئوا من قبل هذا وبعد هذا رغبة أكيدة فى العمل لصالح حبيبهم ومعبودهم وهو أخوهم الإنسان ، ووطنهم وادى النيل ... وهم قد اكتسبوا بحكم ثقافتهم مقدرة على التفكير فيما يحيط بهم ويدور حولهم فيرون شقاء الغالبية العظمى من المصريين ، ويرون كيف يعيشون كالأنعام ،

ويشعرون بالظلم الواقع على الطبقات الفقيرة فى مصر. ويرون أن قرانا زرائب، وأحياءنا الشعبية فى مدننا خرائب .. وأن العناية بالشئون الصحية والعمرانية لاتنفذ بدقة إلا فى الأحياء التى يسكنها الأجانب والأغنياء. ويرون أن الحكومة إن عملت فانها تعمل حيث يعيش كبار رجالها...

ويرون أن خير مصر تختص به طائفة من الناس تتوارثه بحكم الحسب والمصاهرة لابحكم النبوغ والمقدرة. وأن الزلفى تعود على المتزلف أنهاراً من الخير، وأن العمل المنتج معاقب عليه. وأن النبوغ فى مصر محارب، وأن الإنسان مرزوق بمبلغ جهله، لابقدر علمه ومبلغ جده وعملـــه . . .

ويرى الشباب أننا أمة مظاهر، فعندنا تعليم إلزامى ومدارس إلزامية، لأن فى جميع أنحاء العالم تعليما إلزامياً، ولاعبرة إن كان هذا حقق خيراً كثيراً أم لم يحقق؟ وماهى نواحى النقص التى يشكوها وكيف نعالجها؟ وعندنا معاهد عليا وجامعات. أما ماذا يدرس فى هذه المدارس والجامعات فأمر ثانوى. أليس عجيبا ألا تعرف الجامعات حاجات مصر فتعمل على تهيئة الشبيبة الصالحة التى تضطلع بمختلف المهام فى مختلف نواحى الصناعة؟ أليس عجيباً أن يكون عندنا فى مصر صناعة ناشئة ولكنها تكون شطراً كبيراً من صناعاتنا ومستقبلها وهى صناعة الغزل والنسيج ومع ذلك لاتجد مدرسة واحده من مدارس مصر العليا فيها قسم أو بعض قسم يدرس المواد التى تتعلق بهذه الصناعة؟!!

ويرى الشباب ويفكر فيجد أن لنا مبعوثين فى الخارج، أما ماهى الدراسات التى أوفدوا لها فليس بالشىء المهم، بل ما الذى ينتظر

أن يعملوه بعد عودتهم ؟. بل إن الحكومة تحاربهم وتعاملهم معاملة غير كريمة ؛ فهى لاتكفيهم مؤونة التفكير فى الناحية المادية من حياتهم لأن مرتباتهم لاتكفيهم طعاماً ، ثم هم مطالبون « بأن يرفعوا رأس مصر عالياً » ! ولكن ألا يسأل نفسه من يقول هذا : كيف يرفعونه عالياً وهم يعطون مرتباً أقل من أى أجر يتقاضاه أى عامل فى انجلترا ؟ !

ويفكر الشباب فيرى أن جامعاتنا حرمت من شىء اسمه البحث.. وأنت تعلم أن الفرق بين الجامعة وأى مدرسة عليا هو الأبحاث . وليس هناك مثلا ميزانية للأبحاث فى كلية الهندسة ، أو هكذا كانت إلى عهد قريب فلعل الحال قد تبدلت الآن ، وأساتذة الجامعة أكثرهم منصرفون إلى عياداتهم وشركاتهم ونواحى نشاطهم الأخرى فى خارج محيط الجامعة .

وينظر الشباب فيرى أن الذين بيدهم الثروة لايرعون الله فى أداء الزكاة المفروضة، والإكثار من البر والخير، ولم يفكروا إلا فى أنفسهم وأنحى المهندس الشاب باللائمة على الذين تسوغ لهم نفوسهم قبول الرشوة فى شكل عضوية مجالس إدارة للشركات الأجنبية ، فيصبحون آلة فى يد الأجانب يتسترون وراءها حين ابتزاز أموال الفلاح والعامل إن كانا لا يزالان يملكان أموالا ! !..

يفكر الشباب فيجد أن فى مصر وحدها الباطل حق مادام يتصل بمحسوب أو كان صهراً لذى نفوذ ! ! والحق باطل إن تعلق بأمثالهم من عباد الله ! !

يفكر الشباب فيجد أننا نستطيع أن نقوم فى مصر بصنع كثير من الأشياء التى نستوردها ، وأننا قمنا بذلك فعلا إبان الحرب ، ولكن الأمر الآن قد تغير ، فهناك شركات الاستيراد تريد أن تملأ جيوبها فتستغل نفوذ رجال إدارتها وتطالبهم بالعمل ثمناً لمراكزهم فى هذه الإدارة فيعيقون إنشاء الصناعات ، أو ازدهارها ، ويحصلون على تراخيص الاستيراد فتمتلىء جيوب أسيادهم من رجال الشركات بالأموال الوفيرة نتيجة للعمولة. وتحرم مصر من الصناعة ويصبح عليها أن تكدس المصريين جميعاً فى الأرض يفلحونها وليس فى الأرض متسع للرزق إلا بشق الأنفس...

ويفكر الشباب فيرى أن كثيراً من فتياتنا « المليونيرات » تزوجن بأجانب ، وهذا شىء شخصىّ كما يزعمون ... ولكن الزواج تتبعه ذرية ، والذرية ترث ، وتكون النتيجة أن تنتقل تلك الملايين إلى ذرية أجنبيـــــة .

ويفكر الشباب فيرى أن مشاريع الإصلاح معطلة ، وأن أى تشريع يعود على الطبقات الفقيرة ببعض الخير ويأخذ من الطبقات الغنية بعض الفضل يوقف . وأن الضرائب التصاعدية مثلا أبطأت ، وافق عليها مجلس النواب ، ثم جاء مجلس الشيوخ فعطلها !..بل يقول إنه فى ضريبة الأطيان مثلا تقل نسبة الضريبة على الفدان بمقدار غنى صاحبها لأنه إما أن يكون عضواً فى اللجنة التى تقدر الضرائب أو أن له نفوذاً عليها !..

ويفكر الشباب فيرى أن مصر وقد سحبت مايقارب ربع دينها على انجلترا لم تستفد من هذا الاستفادة الصحيحة بانشاء الصناعات التى تحتاجها.

ويفكر الشباب فيجد أن دستورنا الارتجال والفوضى ، فليس هناك دراسة صحيحة لتعرف حاجاتنا ، بل ليس هناك من يشغل نفسه بتعرفها لأن الحزبية السياسية شغلت أولياء الأمور .

هذه بعض أفكار الشباب ياسيدى ، ترى منها كيف يفكر ، وكيف يرى النتائج التى يصل إليها ، وهى نتائج ملتوية فى بعض الأحيان ، لأن الشباب عادة تنقصه الخبرة بالحياة . وهو إن استطاع التفكير السليم فقد لايحسن الحكم على الأشياء .

هذا مايجول بخاطر الشباب ، وهذا مايدفعه أن يعمل ، ولكنه فى حاجة إلى قيادة لأن الخبرة تنقصه . فيقف حائراً بين مختلف التيارات ، مثله فى ذلك مثل خليل الله ابراهيم عليه السلام ، حين كان ينشد لنفسه إلهاً فعبد الشمس ثم القمر ، ثم سأل ربه الهداية !.

الشباب فى مصر مملوء طاقة وهو ينشد قيادة حكيمة توجهه إلى العمل لصالح مصر ، فإن لم توجد القيادة فليس ذنب الشباب إن زل ، ولا وزر عليه إن أخطأ .

قودوا الشباب قيادة حكيمة ، ووجهوه توجيهاً سديداً ، يأت بالمعجزات ، اعملوا لصالح الوطن فهذا خير سبيل لعلاج أمراض شبابنا ، وأشعروه أنكم تعملون للصالح العام ، فهذا هو أنجع السبل لتجنيبه التيارات المختلفة التى تجتاح العالم .

إن الشباب أصبح لايؤمن بالأقوال ... ولكن بالأعمال . .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

أبي المقامر . . .

أب وأم وثلاثة أولاد : الأب مقامر كبير أضاع نفسه وأهدر مستقبل أسرته وأولاده وانكبّ آناء الليل وأطراف النهار على موائد القمار . والأم امرأة فاضلة ، بل جوهرة كريمة ، عظيمة الإيمان بالله . انفصلت عن زوجها لسوء سلوكه وعدم عنايته بأولاده ، وإهماله لأسرته . انتقلت هى وأولادها الثلاثة إلى بيت والدها المتوفى ، حيث استقرت ، وهو كائن فى مركز من مراكز أسيوط ... وكانت الأم أبية النفس كريمة الأصل لاتقبل إحساناً من أقرب المقربين إليها ، والحياة قاسية . لكنها عرفت كيف تكد وتشقى طول يومها فى حياكة الملابس للسيدات والآنسات من صديقاتها ، زميلات الطفولة والدراسة فاذا ماجنّ الليل ، قضته تصلّى لخالقها شاكرة عطفه ليديم عليها نعمته !.. ولم تفكر قط فى شبابها الغض . الذى أوشك على الذبول بعد أن كانت زينة الفتيات وأعزهن جانباً قبل زواجها المشؤوم وقبل وفاة والدها. وأرسلت أولادها إلى المدارس ، وكان الابن الأكبر «م. ف.» فائق الذكاء ، شديد الملاحظة ، قوى البنية ، فجاز الامتحانات كالسيف ، وكان دائماً أول الناجحين ، لايتطرق الوهن أو الفشل إلى نفسه أبداً ، وأبداً فى الطليعة ..

وفى زيارة للقاهرة فى إجازته السنوية ، كعادته فى كل عام ، قابل

أباه صدفة بعد غياب تسع سنوات طوال من انفصال الأسرة وتفكك عراها . وتغلبت عاطفة البنوة ، واتصل الابن بأبيه ، وكان قليل الثقة به بعد النكبات التى لحقته هو وإخوته من جرائه . ولما اطمأن إلى حسن نية الوالد ، أراد أن يصلح ذات البين بينه وبين أمه حتى تم له ما أراد . رجعت الزوجة إلى بيتها وعادت المياه إلى مجاريها ، يحدوها الأمل ، ويحفزها الرجاء إلى الله أن يعوضها خيراً بعد طول شقاء فى تربية أولادها.

لكن الدهر قاس لايرحم ، فقد عاد الأب إلى دائه الوبيل ، وانغمس فى المقامرة ، وظهر أن توبته كانت كاذبة . وخيم الشقاء على الأسرة من جديد ، وأهمل الأب دفع مصروفات ابنه المدرسية ، ذلك الابن السيء الطالع الذى نكب بأب مقامر ، فاضطر وهو فى السنة النهائية من دراسته الثانوية ، أن يشقى ليلا ويعمل كادحاً ليوفر للأسرة القوت الضرورى وليستمر فى دراسته . ونجح الفتى ولم يكن هناك بد من العمل ليعول أسرته ، بعد مافقد المدخر من مال الأم ، ولاسبيل حينئذ لاستكمال تعليمه . والتحق الابن الثانى بالمدارس الثانوية بالمجان ، لتفوقه ، والثالث بالمدرسة الابتدائية . وكانت لذة الابن الأكبر البار أن يجد نفسه هادئاً فى وسط عائلته ، راضية أمه عنه ، حامدين ربهم بذلك الدخل البسيط الذى أغناهم عن ذلك الأب العاطل الذى أورث زوجته الأمراض العصبية والنفسية ..

ويعدد لنا ذلك الشاب المجاهد مالاقاه من أهوال فى سبيل تعليمه ، وما عاناه من كد وإرهاق ، فيحاول أن يخفف من وطأة ذلك كله فى مطالعة الكتب الأدبية والرياضة البدنية ، وعينه دامعة لرؤيته من

هم أقل منه ذكاء واجتهاداً يواصلون تعليمهم الجامعى ، وأمامهم المستقبل الباسم ، فى حين أنه مربوط إلى عجلة الحياة بقيد من حديد لا يستطيع منه فكاكاً .. ومرت أربع سنوات وهو على هذه الحال ..

ولا ينسى هذا الشاب أن يسرد علينا شيئاً عن حياته العاطفية ؛ فيقول إنه اتصل بفتيات كثيرات إما بحكم القرابة أو الجوار ، وكن يتمنين الزواج منه ، لأنه كان مثلا طيباً للشباب المتزن ذى الأخلاق السامية . ولكن لم تستطع إحداهن أن تتغلب عليه ، لا لأنه جامد العاطفة ، بل لأنه كان يعاملهن بمستوى واحد كأخواته . وكم من مرة كانت هوة الجريمة والعار فاغرة فاها تريد أن تبتلعه ، ولكن عفاف نفسه ، وترفعه عن تلك الصغائر ، وأمله فى أن يجد يوماً تلك التى يتخذها شريكة حياته ، كل ذلك مكنه من أن يخرج من المعركة منتصراً !

والحق أنه لم يكن لبنات حواء أى تأثير فى حياته ، ولم يكن مستهاماً إلا بواحدة : تلك هى أمه ، التى علمته الإيمان بربه والثقة به ، وبثت فى نفسه الاعتماد على النفس والإخلاص وحب الغير ، ولطالما لجأ إليها يستمع لنصحها وإرشادها ، يحاول إسعادها ليعوضها عن شقائها الطويل الذى لاقته فى حياتها .

ولم تدعه تلك الآلام والحوادث إلا وقد تركت على وجهه مسحة من الشقاء ، تراه فتحسبه أكبر من سنه الحقيقية بكثير ، ينظر إلى الحياة بمنظار التهكم المر ، راضياً بملبسه القليل وما يقدم إليه من الطعام الضئيل ، حامداً شاكراً لأنعم ربه ! !

والآباء يأكلون الحصرم .. والأبناء يضرسون ...

نشيد الوداع !..

فتى يودع نفسه وأهله وأصدقاءه ، لأنه اعتزم الرحيل عن هذه الدنيا إلى عالم آخر يراه أكثر هدوءاً وأتم راحة وهناء ..! ويطلب الصفح والعفو من أهله وأصدقائه لأنه كان يمثل لهم أملا عميقاً ، وإيماناً راسخاً !! وهو يناجي أباه :

« وأنت يا أبي كنت دائماً شجاعاً ، فكن أكثر شجاعة عندما تتلقى نبأ مصرعي بيدي ! لا تبكني ! لا تتذكر أنني وحدي الذي أخذت بيده لتعلمه دون سائر إخوته . لا تتذكر أنني كنت فرداً بين إخوتي . صحيح أنني كذلك ، إلا أنني كنت دائماً باكي القلب ، حزين النفس ، أجري سريعاً إلى نهايتي !..

« إنك كنت ترى جسمي ضعيفاً . أليس كذلك ؟! إنه سوء التغذية الذي عاشت فيه طفولتي : كنت أرى عيدان القصب فاكهة لا أجرؤ على طلبها سنوات من حياتي ! كنت أنت بعيداً عني تجوب دنياك تكافح وتناضل وقلبك الكبير يدمى ويتقطع لكي تعود إلينا بمال وفير ، تستطيع أن تعاود به تلك الحيـــاة التي تجري في دمائك فنشاركك فيها : حياة العز والرفاهية والغنى .

« غبت عنا سنوات الحرب في بلاد (...) ولكننا كنا في كل ليلة نبكي خوفاً عليك من نارها .. وليتك بقيت معنا راضياً بالكفاف .

ليتك بقيت ! إذاً لتغيرت حياتي وما كنت لأفكر في الموت ..

« كان بيتنا الكبير في القرية يخفى بؤس أهله . وأمي التي كانت تفنى شبابها في انتظار عودتك بينما أنت وجدك بعيد ، وربما كنت تدفع عن نفسك فكرة الانتحار لتعود إلينا ، لترانا وتلقى علينا نظرة واحدة . أتخفى بيتنا الكبير يا أبي آلامنا - كنت صغيراً يوم فارقتنا ولم يكن معنا قطعة من النقود ، وقد رأيت والدتي وهي تضع في جيبك - دون أن تدري - كل ما تملكه ، حتى ساعتها الذهبية (كان لأمي ساعة ذهبية ! !) وقد أمضيت أنا تلك الليلة كلها بكاء . »

.. ثم نجده يصف بؤسه وشقاءه فيقول إنه عرف الحرمان والجوع ، فكان يلبي نداءهما ، ويذهب إلى الخلاء وحده حول حقول الطماطم لعله يوهب الشجاعة فيمد يده ويأخذ ثمرة أو ثمرتين يسكت بهما نداء جوعه ، ويخرس بهما ألسنة حرمانه ، ولكنه كان يعود في كل مرة دون أن يرتكب هذه الجريمة ، ليفكر كيف يقترفها في المرة القادمة ، أو يتحول إلى حقل الخس الذي يجاورهم ، فقد مر « شم النسيم » ولم يأكل خساً ولم يلون بيضاً !..

وكم من مرة اشتهى ثمار الجوافة فذهب إلى إحدى « الحدائق » وتملكته حمى الحرمان ، فصنع لنفسه ثغرة في سورها دخل منها ولكن صاحبها أمسك به . ولأول مرة أدرك أن جدران منزله لا تستطيع أن تخفى كل حرمانه وكل عاره !. وكانت تلك نقطة التحول في حياته : فلما عاد مرة أخرى ، وكانت الحمى قد ألهبته ووثق من أن صاحب الحديقة ليس بها ، دخل كاللص من الثغرة وقطف ثمرة واحدة

وأخفاها في ثيابه وذهب إلى النهر فغسلها فيه وقضم منها قضيمة واحدة ، فما إن لاكها بين أسنانه حتى شعر بجريمته ، فألقى بباقي الثمرة في النهر ، وبكى ، ومازالت البقية في فمه ! فلما خيل إليه أنه انتهى من بكائه ، وتمالك شجاعته غسل وجهه في النهر ، ثم جففه في ملابسه ، فما سار إلا خطوات حتى أسلمت محاجره دموعه ، فعاد إلى حيث كان وبقي هناك طويلا ...

كان يرى إخوته وهم يمرضون الواحد تلو الآخر ولا يستطيعون أن يحضروا لهم طبيباً يداويهم وهم يعانون سكرات الموت ، بل ولا حتى حلاق القرية ! إن أمه تبيع حليها القليلة واحدة بعد أخرى لتجنبهم عوادي الدهر ، ثم نفدت جميعها ، وبقي لهم الألم وفتات الخبز في قليل من الشاي صباحاً ، وصفيحة « المش » ظهراً لإخوته . أما هو فكان يأكل في المدرسة ، ويحفظ فاكهته في جيبه ليحملها لأخيه الصغير ، ويخبئها من مراقب المطعم كمن يسرقها ، لأن هذا كان محرماً ، وكان تعليمه لجيمن الحظ بالمجان ..

ولقد حدث مرة أن ضربه أحد المدرسين لأنه لم يحضر قطعة من البطاطس ، (ومن أين له ؟) ليصنع منها أكلشيهاً يطبع به في الرسم زخرفاً لسمكة ، فذهب يبكي وأقسم أن لايذهب مرة أخرى إلى المدرسة ، ولكن لكي يرضي أمه كان يخرج ويلعب في الشارع ويعود في موعد الخروج ، ولكنها علمت بخطاب الغياب ، فلم تحدثه بل ذهبت إلى المدرسة لتقابل الناظر ، وكم ظل خجلا من نفسه ولم يقدر بطولة أمه ، ولم يتذكر إلا أنها وهي الريفية التي لاتشاهد أحداً من

الغرباء ذهبت إلى المدرسة ، وطبعاً رآها الكثيرون ورأوا رثاثة ثيابها ! ! .
فلا تستطيع جدران هذا المنزل الكبير مرة أخرى أن تخفى هذا الشقاء !
ولقد كان حسبه أن يراه الناس وحده فى ملابسه الرثة دون أمه !

أما عشاؤهم فكانوا يأكلونه أشتاتاً متفرقين ينتظمهم فيها بين ليلة وأخرى العدس ، وكان إخوته الصغار عشاء يبكون ...

ويعود محدثنا والده فيقول له : « إن الحياة كانت فى نظره لقمة الخبز ، وهذا الأمل الذى يراود أمه بعودته إليهم فينسون الشقاء ويعودون إلى حياة عزهم التى حجبتها عنهم تلك الحياة التعسة . »

ثم مرضت أخته التى كانت له على صغرها منبع حنان ، يخفف من ظلمة نفسه . وكيف السبيل إلى طبيب ؟ ثم أشرقت ذات مساء بعد أن كانت العلة قد استبدت بها ، وصحت صحوة الموت فزارت جميع الجيران ، فابتهجوا وطربوا وجلست معهم تشاركهم فى الحديث على العشاء ، ولأول مرة ذاقوا « العدس » شهياً ، فأتوا عليه ، وتندرت هى عليهم بذلك !. ولأول مرة نامت نوماً عميقاً بعد أن قص عليها أقصوصة ، ثم زار « عزرائيل » بيتهم بعد هذا بساعة واحدة !.
ويصف أمه وقلبها يتقطع وهى تودعها فى صوت ساكن مكتوم .
وخفت الضوء الذى كان ينير منزلهم ، وسكن إلى الأبد الجسد الذى سكنته أعذب روح كانت تبهج الدنيا أمامه فى أحلك أيام الشقاء .
هكذا فاضت روح أخته بين يدى أمه . وهو نائم يحلم بتلك الرحلة التى كان يتكلم معها عنها والتى سيقومان بها فى الصباح فيذهبان إلى النهر ويصطادان سمكاً يشويانه بأيديهما ، وكتمت والدته الخبر حتى

الصباح ، فاستيقظ فزعاً على صياح نساء القرية كلها وهى تجلجل بأصوات الفزع والفجيعة !..

وكان على صغره صاحب فلسفة ، كان يرى أن الناس يخطئون ببكائهم على الموتى الذين يعبرون القنطرة الكبيرة إلى عالم سعيد !! ولكنه بكى يومئذ أكثر من أى إنسان بكى من قبل ؛ لأنه فقد أول إنسان أحبه فى الوجود ، وجاءته أمه تواسيه حانية بأمومتها على صغره !

وتغيرت نفسه وصار يفزع من الظلام ، ويتصور أشباحاً تحوم حوله ، وهو يعود إلى فراشه فيحس برودة الموت تسرى فى أوصاله ، وهو يرى مكان أخته خالياً منها ، تلك الأخت الجميلة التى كانت زهرة حياتهم : ثم مرت الأيام وشفى من صدمته فى أخته . وكان يذهب إلى قبرها فيضع عليه زهور الفول التى كانت تحبها . وكثيراً ما تخيل أنه ذو قوة خارقة يستطيع أن يعيد أخته للحيـــاة ، ويعيد والده من مكانه النائى ...

ولهذا عاش حياته كلها فى خيال ، وتفوق فى دروسه ، ولكنه يقول إنه كان يصنع هذا وهو يعيش لشىء مجهول لايدريه ، ولقد عرفه منذ شهور فقط : إنه هذا الوداع الذى يلح عليه لكى يسرع به فيترك الحياة :

إن الشعور بأنه سيخفق فى حياته هو الذى يسرع به إلى القبر ، وكم حاول — وهو الذى يراه زملاؤه مثلا أعلى لهم — أن يجتث هذا الشعور من قرارة نفسه ، ولكنه لم يبرحه . فكل يوم يمضى يقترب به من القبر . وقد تكون نهايته قريبة جداً ، ولكنه يجد من العار أن يقوم بهذا الآن ويتسبب فى تأخير زفاف أخته الصغرى ، بل فرح

أهله جميعاً بعد أن نخيم الحزن عليهم زمناً :

ويقول إنه عليل الجسم سقيم البدن ، علة لا شفاء لها ، ومن أجلها سيودع الحياة . ويوجه كلامه إلى أهله وأبناء وطنه فيرجوهم : « أن لا يقولوا له كن قوى الإيمان بالله » ، لأنه أشد إيماناً به من أى وقت مضى ، ولكنه يريد قبل أن يفارق الحياة أن يقول لهم جميعاً ، أولئك الذين سيقرأون نشيد وداعه : إن وجوده فى هذا الوطن وحده هو السبب الثانى الذى يلح عليه أن يقدم نهايته ويودعه بما فيه . ..

إن البيئة والتعليم هما اللذان صنعاه للموت ، فاذا لم يفعل فسوف لا يعيش إلا حياة رخيصة لا ترضاها نفسه إذا قدر له الشفاء ، حياة عبودية فى وطن أهله أذلاء للأغراب ، حمقى حين يؤكدون لأنفسهم عبوديتهم بأنهم كرماء لضيوفهم . حياة يحمل معها عار الاستعمار دام أجيالا ، تلك الحيـــاة التى هى أشبه بحياة الرقيق يضربون بالسياط ليتحركوا ، ويضربون بالسياط ليصرخوا بألفاظ يتشدقون بها ! ! ...

* * *

فى رأينا أن من العار على الشباب أن يذكروا الموت ، وهم الطليعة المرتجاة ، ورواد البسالة والإقدام .. ونحن نحب من هذا الفـــؤاد الحساس أن يسمعنا نشيد الدعاء للشفاء من علته ، ثم نشيد الرجاء فى الله ليرد إليه صحته وقوته ، ثم نشيد الثقة بأمته لتحفظ عليه كرامته ، وترد إليه عزته ، ثم نشيد الهجوم والزحف على الحياة ليتم رسالته ، ولا يسمعنا نشيد الهلع والفرار والوداع ...

إلى الحيـــــاة إذن ، يابنى .. لا إلى الموت !..

صراف المدرسة !..

هو طفل صغير فقير .. صغير حتى ليضحك منه إخوانه فى المدرسة ويتخذونه هزوءاً وسخرية ، ولكنه كان يكيل لهم الصاع صاعين ، هو من ذلك النوع الذى لايكاد يسمع السؤال حتى يقذف بالجواب ، كان متفوقاً على أقرانه . لذلك أحبه مدرسوه وأخذوا يشجعونه بتأنيب زملائه الكبار فخلقوا له ، دون أن يشعروا ، أعداء من زملائه . كانوا يتبعونه بعد الخروج من المدرسة ليضربوه ، و« يكبسوا » طربوشه حتى يلاصق جلد رأسه فيؤلمه هذا ويحرجه ، كان ضعيفاً لايجد متنفساً إلا فى البكاء ولم يستطع إلا أن يتحمل الأذى حتى تعود مع ذلك — أشد ما يكون صبراً — على تلك المصائب التى تجلس أمام المكاتب فى كل مدرسة ، ثم تمر على الفصول تطالب الطلبة بالمصروفات وإلا فالطرد .. إلى الخارج .

كان أولى تلك المصائب «م» افندى صراف المدرسة الابتدائية .. يدق الباب بمؤخر قلمه ، ثم يدخل ممسكاً بدفتر فى يده لينادى على الطلبة المطرودين ، وكان هو فى القائمة ، وعلى رأسها لأنه لم يدفع درهماً منذ دخل المدرسة ، فكان يعطف عليه ، على سبيل التفضيل ، بصفعتين تدويان على خديه الأيمن والأيسر ، فيرفع الطفل وجهه البرىء إلى ذلك الوجه الصارم سائلا إياه من خلال عبراته : «ماذنبى»؟

ولم يحدث خلال حياته أن ضرب مثلما حدث فى المدرسة الابتدائية . كانت هناك فصيلة من المدرسين لاتجد لذة إلا فى ضرب التلاميذ بلا رحمة أو هوادة ، وبدون سبب . على أن مدرس الحساب ، وهو يعرف صاحبنا لتفوقه فى مادته ، كان دائماً يشيد بأنه العنصر الحى فى الفصل كله وكان يوحى إليه أن يختبىء تحت « التخته » حتى يمر «م» افندى فى الصباح وهو يمنى كفيه بصفعتين على خديه الدافئين الصغيرين !

وحدث أن اكتشفه ذات مرة فأقبل عليه كأنما يريد أن يفترسه ، وبينما هو يضع يده على خده ليتقى بها ما استطاع من الصفعات ، وقف مدرس الحساب بينهما حائلا ، وتشبث التلميذ بملابس منقذه كما يتشبث الغريق بأهداب الحياة ، وأصر المدرس على أن يظل تلميذه فى الفصل أو يمتنع عن الاستمرار فى الدرس .. فخرج « م » افندى وهو يهدر !..

وعندئذ سأله المدرس « لماذا لاتدفع المصروفات ؟.. وأنت ولد شاطر . وحرام أن تخرج .. ». فنظر إليه متعجباً دهشاً ، فهو إذا طلبها من والديه نهراه ، وإذا ذهب إلى المدرسة بدونها ضرب وطرد ! وهو يسأل نفسه لماذا لايدفعها ويستريح كبقية التلاميذ ، وهذا ما لم يكن وقتئذ يدريه ، ولكنه علم فيما بعد عجز والده وضيق ذات يده ، فقد كان مرتبه إذ ذاك ستة جنيهات من مخدومه اليهودى مع أنه يعول والدته وأربعة من الإخوة .

حصل على شهادة الابتدائية فى عام ١٩٤٠ – ولم ينم فى ليلة الامتحان ، وكانت ليلة ليلاء لايزال يذكرها بغارات الألمان على الاسكندرية – وقد دهمته الغارة عند ذهابه إلى لجنة الامتحان فوصل إليها متأخراً ساعة عن الموعد المحدد ، بيد أن اللجنة كانت لم تبدأ عملها بعد .

* * *

تألم لأنه رأى زملاءه يلتحقون بالمدارس الثانوية فى فرحة ولهفة . ولذلك فاتح والديه فى أمر التحاقه بها فما كان منهما إلا أن صارحاه ، وهو ابن العاشرة ، فى أن يقرر بنفسه مصيره فى هذه الحياة ، ونعتته والدته بالولد «الخايب» وهو لايعجب من ذلك ، فكثيراً ما رأى فى هذه الحياة فتيانا يقررون مصيرهم وهم دون السابعة : صبى حلاق ، جرسون مقهى ، بائعا جوالا ، وربما كان له من بينهم زملاء فى المدرسة الأولية ! . وأصبح فى نظر أسرته عالة عليها وبخاصة وهو يحمل «الشهادة» . كان مثالياً ، مشبعاً بروح قوية تمثلها وقتها فى « فكرى أباظه » واختار لنفسه مستقبلا هو الالتحاق بكلية الحقوق حتى يوقع على مقالاته « المحامى » !

صارت حياته لاتطاق ، لقد عشق الهدوء وهو يعيش فى جو كله صخب . فوالدته طيبة القلب ولكنها جاهلة ، كل حياتها صراخ وعراك . أما والده فقد دفعه اليأس إلى دفن نبوغه وتفكيره ، فأخذ يعاقر الخمر ، يضع الكأس مترعة أمامه ، أو يضع نفسه أمام الكأس حتى ينسى الدنيا وما فيها مترنماً ببعض المواويل والأغانى والأشعار .

فكان صاحبنا يهرب من هذا الجو كله إلى شاطىء البحر المواجه لمنزل الأسرة يسعى وراء قراءة الأدب لكبار الكتاب — يقرأ «مجلتى» من عند بقال مجاوز منقذاً إياها من التمزيق ! وعرف أساوب صاحبها المشبوب الذى يذكى الأرواح بتلك الحماسة وهذا الإبداع فى وصف جمال وأعجبته بطلة « المرأة لعبتها الرجـــل » تلك التى تقول لحبيبها وهى ترتمى فى أحضانه : ياقلبى : أفلا تحب ما أمنحه لك من نفسى ؟ إن جسمى كله فى أحضانك .. ، أفلا يكفيك هذا كله ؟ إذن فلست أنا التى تحبنى ، ولكن ما أمنعه .. » فقرأ ملخص هذه القصة مراراً حتى حفظها وهو لما يتخط العاشرة من عمره ! وقرأ لصاحبها كثيراً غيرها ، وكان يفهم ، كشاب فى العشرين ، الغمزات والكلمات والمعانى الكامنة وراءها ، وأدرك تماماً كنه الحب ، خبيثه وطيبه ، إن الحيـــاة دبت فيه مبكرة ، دبت على يدى صاحب هذه القصة ! ! من تلك الغراميات الأندلسية الثائرة المشبوبة ، الملتهبة المندلعة ، التى يحفظها إلى الآن . وقد انتفع بها كمصباح من النور يضىء له الطريق السوى.

ودار العام دورته دون أن يستقر الولد «الخايب» فى عمل وقامت الثورات والتهديدات فى إقناعه ، وبدا لوالده أن خير وسيلة هو « تلقيحه» فى أى مدرسة ثانوية . وتمت عملية « التلقيح » فى مدرسة (...) أبشع وأشنع وأقذر مدرسة شهدها . لاقى فيها الهوان والذل والطرد على يد صرافها « ج» افندى .. كان هذا الصراف قصير القامة ولكنه فتاك .. كان لسوء حظ صاحبنا شيطاناً رجيما ، أو قل إن الشيطان صورة مصغرة من « ج» افندى !

تغيرت نظرة والده إليه وفهمه ورأى فى آماله صورة من آماله هو، فبدأ يشجعه ويؤازره ويشد من عزيمته وينصره على والدته، وأعلن إليه فى ساعة صفاء أنه مادام يحب العلم فانه سيظل إلى جانبه حتى النهـــاية .

قرت عين الصغير وأصبح يخرج لسانه لـ « ج » افندى وطفق يحاوره بكل الطرق الصبيانية الطريفة — كان يهرب منه إلى دورة المياه فى وقت مروره على الفصول ليطرد من عجزوا عن دفع المصروفات المدرسية ، كان يتسلق السور إلى داخل المدرسة لأن « ج » افندى أصدر أمره إلى بواب المدرسة بألا يسمح لصاحبنا بالدخول ، وهو يرى طلبة آخرين ، طائفة الهاربين ، الهاربين من الدروس . أولئك الذين دفعوا المصروفات ، ولكنهم يفضلون السينما من العاشرة صباحاً إلى الواحدة ، على العلم . وناهيك بالخطابات التى كانت ترسلها إدارة المدرسة إلى والده ، فقد حوت كل الألفاظ الخارجة عن الذوق وحتى عن الأدب . ويذهب والده إلى المدرسة وتدور بينه وبين الإدارة مساومة على المصروفات فيقول :

— إن المصروفات صعبة ، ١٤ جنيهاً ! ! فيقولون : إذن خلها ١٢ جنيهاً !..

— وهذا أيضاً كثير !..

— لتكن إذن عشرة جنيهات ونصفاً .. أقل من هذا لانقبل !..

ثم وصل إلى مرحلة الثقافة ، وهنا زايلته الروح المرحة بعد طول الجهاد . غلبه اليأس ، وفارقته الألمعية والتفوق — إنها الناحية المالية ، ألم نفسانى

وألم جثمانى من كثرة تسلقه سياج المدرسة ليدخل .وليس أقسى على النفس من مغادرة المنزل فى الساعة الثامنة صباحاً ثم العودة من المدرسة مطروداً فى العاشرة .

على أنه يذكر للدكتور السنهورى باشا مكرمة لاتزال تطوق عنقه ، فقد جمع مصروفه فى أيام واستطاع أن يكتب إليه ، وهو يومئذ وزير المعارف ، تلغرافاً قصيراً ، ولكنه حوى كل غصصه من المدرسة ، فكان رد الوزير أمراً بالتحرى عن حالته وأرغم « ج » افندى ، صراف المدرسة على أن يتركه ، راغم الأنف ، ويعقد هدنه معه !..

ولا ينسى لـ« ج » افندى هذا الذى أصبح يرمقه بعينيه الكثيبتين من حين إلى آخر ، انه تناسى أن يعطيه رقم جلوسه فى لجنة الامتحان ، ولم ينقذه من هذا المأزق ، مأزق البحث عن رقم جلوسه ، فكان كمن يبحث فى غرفة مظلمة عن قبعة سوداء لاوجود لها بهذه الغرفة ، ودقت الساعة ، ونفخ فى الصور ، وهو واقف يتفرج فى هذا المهرجان على الطلبة دون وعى ، ماذا يعمل ؟ لقد ضاع الأمل ، أمل دخوله اللجنة ، كان ينظر إلى أوراق الامتحان وهى توزع فى أسى مرير ، وأخيراً جاءه البشير ، فحين أقبل عليه أحدهم فى رفق ويقول إن أخاه الكبير ينتظره فى الخارج حانت منه التفاتة فوجد بين يديه أرقام جلوس فاختطفها منه وبحثها حتى وجد اسمه ، إن « ج » افندى الملعون اعتبره غائباً عن المدرسة فأرسل أوراقه ليتخلص منه ومن المسئولية فى وقت واحد !.

فطار بين صفوف الموائد والتلاميذ واطمأن أخيراً فى مقعده والعرق البارد يتصبب على جبينه ونجح فى الامتحان . بقيت سنة واحدة عليه

أن يجتازها ليصل إلى شعبة الآداب ثم إلى الجامعة ملتقى العلماء ، إلى الجامعة حيث لايطرد أحد مهما عجز عن دفع المصروفات .

ولكن هيهات فقد كان لايدرى أن بالجامعة حرساً خاصاً قوياً معداً للفقراء من أمثاله !

وهنا ينتحى بنا هذا الشاب ناحية خاصة فيصف أخلاق أخيه الأكبر الذى يعمل بالشهادة الابتدائية فقط ، بأنه ينفق كل مرتبه على الملذات ، ضارباً بالحياة وأوضاعها عرض الحائط ، لاهم له إلا التفاخر بمغامراته النسائية ، والغناء والتلحين ، لايعطى المنزل مليما واحداً من مرتبه ، ينفق جنيهين فى اليوم ويعود إلى المنزل سائراً على قدميه ، أما أخوه الأصغر «ح» فقد لمع اسمه فى حل الرياضيات من جبر وهندسة وغير ذلك .

وقد حاول أن يعثر على مجلات تنشر قصصاً بأجر فلم يفلح ، وبعد أن يئس من ذلك ، عمل بكفر الدوار فى صناعة الغزل والنسج من السادسة صباحاً إلى السادسة مساء ، وهنا تعلم كيف تكون الحياة فى هذه البيئة ، وأصبح طالباً فى الشتاء ، وعاملا فى الصيف — وصمم على الالتحاق بالجامعة ، ولكن من أنى له مصروفاتها ، أو حتى الدخول إليها ، والحصار العسكرى ضارباً نطاقاً حولها ؟ فهداه حبه للعلم إلى أن يبتكر طريقة طريفة : رسم خريطة للكلية وأمكنه بذلك أن يكتشف فى دائرة الحصار ثغرة فكان يتسلق منها سياج الجامعة ماراً بمقابر حتى يصل إليها ، وكان لافتخاره وزهوه باكتشافه أن شاركه بعض الطلبة فى الانتفاع به فكثر العدد وانكشف أمرهم .

وبينما هو كذلك في هذا النضال العلمي إذ طوحت به الأقدار في نضال عائلي ، عائلته تناضل من أجل الحياة . من أجل الشرف . من أجل العيش . فقد افتقد والده مبلغ ألف جنيه كان قد حصلها لصاحب العمل ، اليهودي ، الذي يعمل عنده ؛ فلم يقدر هذا الأخير أمانته مدة خمسة عشر عاماً خدمها إياه وصمم على إبلاغ الأمر إلى النيابة ، إذن فسيسجن والده . فذهب إلى ذلك اليهودي وأفهمه بلغة اليائس ، اليائس من عدم تعليمه ، ومن الحياة .. أنه إن سجن والده فلينتحر ، ولكن على طريقة خاصة، وهو أنه سيرتكب جريمة القتل !. » ففزع اليهودي وجبن ، واكتفى بفصل والده من العمل دون مكافأة . وفي هذا الوقت العصيب كان صوت أخيه الأكبر يرن بين جدران المنزل متغنياً بحلاوة الحبيب وطول السهاد !! ! وهكذا لن يستطيع ، حتى الأبالسة ، تغيير المنهج الذي اختاره هذا الأخ في حياته !..

أرأيتم إذن كيف يعيش هذا البائس في مهب الريح ؟ ، وكيف أنه ، حتى بعد أن قطع منتصف المرحلة الجامعية ، لايستطيع أن يضمن مستقبله فيها ؟!

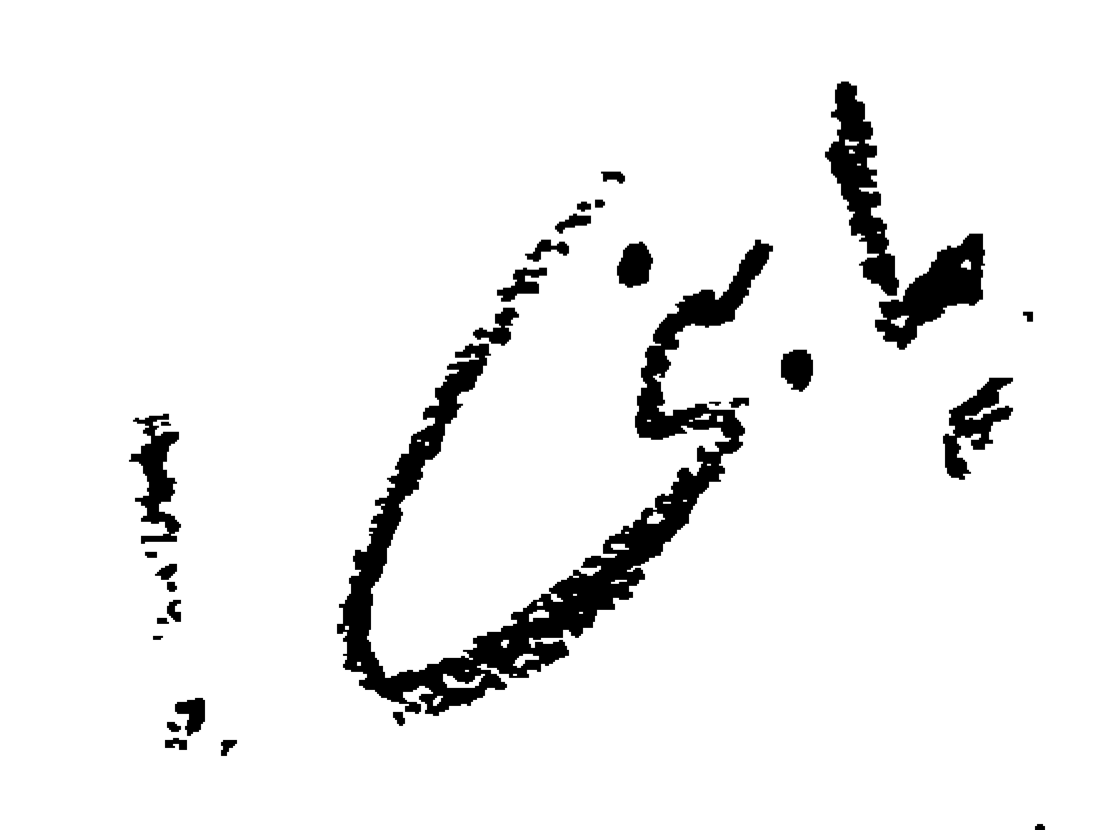
لقد وقف نفسه بكل يأس على المذاكرة ، يدرس ويكتب ويقرأ ويبحث ، اشترى كتابين ، وأهداه العميد كتاباً ، وبقي كتاب ظل يستعيره من الطلاب بالتناوب حتى أقبل موعد الامتحان فدخله واثقاً مطمئناً ، ثم صدمه بعد ذلك قرار الجامعة : لا نتيجة إلا بعد التسديد وكان لايزال عليه ثلاثة جنيهات ونصف فكتب إلى العميد أعجب

التماس كتب فى حياته : بلا تحيه .. ولا ألقاب ، ولا مقدمات ، كتب يقول : « ثلاثة جنيهات ونصف أرجو أن يصدر عفوكم عنى فتعفونى منها كأنما كانت بالنسبة إلى ذنباً من الذنوب تلاحقنى لعناته ومصائبه ! لقد تحطمت أعصابى من الإنهاك ! أما من رحمه ؟ إرفع يمن صدرى هذا الكابوس وإلا فدعنى أسترح !... »

وقد استجاب العميد لصرخة هذا « المذنب » ! وأذاع نتيجته فى الفوج الأول من دافعى المصروفات ، وكان الأول ، وقد سرى عنه هذا التفوق ما لقيه من غم وكرب وراح يشكر الله !..

سوف يكون هناك بعد عامين ، فى باريس ، باريس الجميلة ، باريس التى « يدور حولها طلاب العلم كالنحل حول خلاياه ... » فى بعثة للقانون ، ولكن قلبه سيكون فى بعثة للأدب .. الأدب الذى يحبه بقدر ما يحب الحياة . !

ونحن نؤكد له أن المجد ينتظره ، فقد ضرب له موعداً يتوجه فيه ، ويمسح عن رأسه ذلك العرق البارد الذى تصبب من مخافة « صراف المدرسة » !..



في حياة الشبان مشاكل لاتنتهي ، لأنها تمثل قلق هذا الجيل الشديد التردد والتزعزع والطموح ، وتمثل الحيرة بين الآباء والأبناء : بين تجربة الأمس وبين أميال اليوم . أمامنا رسالة لاتمثل حالة خاصة بل يمكن تطبيقها على دراسات أخرى . فلكل شاب أن يأخذ لنفسه منها مايحلو ، ونحن ننشرها لأنها تدل على القلق ، والقلق ليس عيباً في الشباب لأنه دليل اليقظة . ونحن نريد نفوساً قلقة متيقظة خيراً من نفوس فاترة هاجعة لاتنتشر حولها إلا السبات والخمول .

«لم أكن في حياتي حتى الآن ، وقد بلغت التاسعة عشرة ، لم أكن سعيداً بالمعنى الذي يفهمه الناس . فان حياتي النفسية تسيرها وتسيطر عليها عوامل ثلاثة :

أولها : الخيال العميق . فأنا أجلس ساكناً الساعات الطوال سابحاً مفكراً ، حالماً ، أحن أحياناً إلى الغروب فأتصور الشمس غاربة ويبقى المنظر مرتسماً في مخيلتي ساعات ، أنظر إليه وأتأمل ...

أحب أن أستمع إلى الموسيقى ، دائماً وهي حزينة ، فأحلم بأرواح أولئك الذين خلقوا هذه الموسيقى ... تلك الأرواح التي كانت غالباً

محزونة بائسة ، تعانى آلام الوحدة والحرمان ...

وثانيها : هو الحزن . فانى أحب أن أكون حزيناً ، وأشعر بلذة عجيبة حينذاك .. حتى إذا لم أجد سبباً للحزن خلقت السبب لنفسى فأحزن من أجل الحزن نفسه ، ويبلغ بى التأثر أحياناً حد البكاء . فانى أعتقد أن الحزن هو أجمل وألذ شىء فى الوجود .. وهو إذا حل فى جهة ما ، أكسبها جمالا وفتنة . هل رأيت أجمل من الحسناء الحزينة ، وهل سمعت أجمل من القطعة الموسيقية الحزينة ، وهل قرأت أمتع من الأدب الحزين ؟.. حتى الطبيعة لا يتم جمالها إلا إذا كانت حزينة .. وأنا فى هذا كله لا أشعر بسعادة إلا إذا كنت حزيناً فعرفت — كما قلت فى إحدى قصصك — الفرح الحزين ... فالحزن للحزن ، والسعادة للحزن ، فلا أدرى ما إذا كنت أبتسم أم أبكى .. ثم ينتهى بى الأمر إلى لاشىء !...

وثالث هذه العوامل : هو الالحاد ، ففضلا عن حرمانى من تذوق نوع من أنواع الجمال وهو الجمال الإلهى ، فقد حرمت حتى القناعة القلبية التى يتمتع بها المؤمن حين تصيبه نازلة ، والتى تقوده آخر الأمر إلى الطمأنينة وراحة البال .. وهكذا عشت وحدى دون أن أجد حتى نور الإيمان يخفف عنى ولو قليلا ..

هذه هى العوامل الثلاثة التى تسيطر على نفسيتى سيطرة تامة . وهى للأسف تتعارض تعارضاً تاماً مع دراستى ، وتقف عقبة كؤودا فى سبيل نجاحى .. لأنها لاتتلاءم مع الدراسة العلمية . فأنا طالب فى كلية الصيدلة . أمضيت بها حتى الآن ثلاث سنوات ونجحت فى إعدادى الطب . ولكننى فى هذه الدراسة من الزاهدين .

وقد رأيت أن مواهبي تتحقق وتسايرني إذا أنا اتجهت اتجاهاً فنياً . ففكرت في الإخراج السينمائي .

وعشت بهذا الأمل زمناً تحطم فيه ما كان قد بقي في نفسي من عزيمة لإتمام دراسة الصيدلة . ثم إذا بعائلتي ترفض ، بالإجماع ، هذه الفكرة ، وتراها خطيرة ، غير مضمونة . مع أني على استعداد لأن أكافح وأتحمل الفشل والهزيمة . لكي أحيا الحياه الفنية التي أحلم بها . ولكنهم أصروا على موقفهم لاسيا ، كما تعلم ، ومهنة الصيدلة ، مكسبة جداً في هذه الأيام . وحاولت عبثاً أن أفهمهم أن العيش ليس كله مالا .. وأخيراً اقترحوا أن أنتهي من دراسة الصيدلة ثم أدرس الإخراج كما أشاء . ولم أجد بداً من الاستسلام للواقع ، فبقيت في الكلية . ولكنك ترى كيف أنني عاجز عن إتمام دراسة الصيدلة ولا أدري ما أفعل . هل أضرب بكل شيء عرض الحائط وأترك الكلية .. لا أدري ماذا تكون النتيجة ولكن مما يؤلمني ويحز في قلبي أمر والدي الذي وضع في أملا كبيراً كابنه الأكبر خاصة . وقد كنت أثناء دراستي الثانوية أبشر بمستقبل زاهر . فانا واثق من أنه سيتألم ، وسيتألم كثيراً . وأنا لا أستطيع أن أراه يتألم ، فقد كان دائماً عطوفاً علي إلى درجة لا يتصورها العقل . وما زال إلى الآن يثق في بعض الثقة في الوقت الذي نزعت مني فيه بقية العائلة كل الثقة !..

ولو سلمنا جدلا أنه سيوافق على دراسة الإخراج ، فقد يتعلل بأنه لا يستطيع أن يدفع لي حوالي الأربعين جنيهاً شهرياً لأعيش عيشة لا بأس بها في الولايات المتحدة ... فهل أقنع بمبلغ دون ذلك وأتحمل الحرمان والشظف لأصل إلى ما أريد ؟.. هكذا ترى أن موقفي لا أحسد عليه ،

وصرت فى حالة يأس تجعلنى أفكر فى الانتحار ..

وقد نصحنى البعض قائلا أن مما يدفعنى إلى العمل ويحفزنى إلى الاهتمام بدروسى هو تسلية نفسى بشىء ينسينى فكرة الإخراج السينمائى ويشغلنى عن همومى وهواجسى ، كالحب أو الزواج مثلا ... ويقولون إن الحب قد صنع معجزات فى أحوال كهذه . أما من جهة الزواج . ففضلا عن السن التى لا تناسب الزواج ، فأنا أستطيع أن أهجر الطريقة التى أريد أن أمضى بها حياتى .. فالزواج يضيع على الإنسان فرصاً كثيرة للنجاح . وإنى أفضل السير فى حياتى وحيداً ، ألقى النجاح أو أتحمل الفشل وحدى ، بدلا من أن أشترى شخصاً يشاطرنى النجاح والفشل وأدفع ثمنه من مستقبلى وحياتى .. أما عن الحب ، فهذا أيضاً لا أريده !.. لا بأس أن يحب المرء حباً عارضاً يزول بمضى المدة !. ولكنى لا أتمنى أن أهب قلبى لامرأة وأربط روحى بروح أخرى . فان أثمن شىء عندى هو وحدتى . وأسعد أوقاتى هى التى أمضيها مع نفسى . أنا لا أتصور مجىء شخص آخر له روح أخرى يقتحم على دائرة روحى الخاصة ، ويدخلها ، ويعيش فيها ، ويحطم تلك السعادة التى يشعر بها الإنسان إذا ما انفرد بنفسه .. فان هذا هو الوقت الوحيد الذى يجتمع فيه بالأطياف التى أحبها والخيالات التى عشقها ، ويتمكن فيه من أن يسعد بحزنه كما وصفت لك ، وتدمع عيناه أمام ذكرياته ... نعم ... إن دخول شخص غريب فى هذه الدائرة كفيل بأن يفسد كل شىء !..

لا أدرى ياسيدى هل وصلت معى إلى هنا أو مزقت خطابى بعد السطر

الثالث !.. عساك أن لاتكون قد أهملته ، فتبدى رأيك ، وأنا واثق من أنه سينفعنى كثيراً ...

* * *

يا بنى !..

قرأت خطابك بعناية تامة ، ليس أدل عليها من طبعه ونشره !.. وسرنى أسلوبه ، فان عقلك متفتح للحياة وتذوقها ، على رغم الخيالات والأطياف والأحزان التى تزاحم الحب فى قلبك ! فأنت خلقت للحب ولست أنانياً كما تحاول تصوير نفسك بصورة زائفة . إن الحزن ، والوحدة ، والموسيقى ، هى تشخيص لداء الحب الدفين الذى سيظهر فجأة ، وبقوة خارقة للعادة ، عندما تلقى الفتاة الموعودة . فلا تكن كافراً بالحب . ولا تقل كيف أشترى شخصاً يشاطرنى النجاح والفشل وأدفع ثمنه من مستقبلى وحياتى .. فأنت عندئذ إنما تشترى ذات شخصك وذات مستقبلك وذات حياتك . إن الحب سيجعل لوجودك نفسه معنى الوجود . إنك من دون المرأة تتخبط فى دياجير الظلمات ومحيطات الأحزان ثم لاتجدف تجديفاً لايليق بمن كان فى مثل سنك الباكرة الزاهرة : لاتقل لابأس من حب عارض يمضى بمضى المدة ! لاتخلط بين الحب والشهوة . فالحب شعاع قدسى يطهر الحياة ويمجدها ويرفعها ويجعل لها غاية ويجعل لها هدفاً . وليس النجاح نجاحاً إن لم نجد من يفرح معنا به . وليس الفشل إلا مريراً كالعلقم إذا لم يكن وراءنا شخص عزيز نحول من أجله الفشل إلى نجاح ، ولو فجرنا الصخر عيوناً !....

سيكون لك يوماً ما زوجة وولد ، وستعرف أن هذه هى خلاصة

الحياة لا أن تسرح وتمرح بلا رابط ولا وازع ولا بيت ولا مهد . أنت في مستهل حياتك التي بدأتها لامعاً ، فلا تنطفيء في الأوهام الكاذبة . واعلم أنك لن تنجح لا في صيدلة ، ولا في موسيقى ، ولا في إخراج سينمائي ، مالم تكن تعرف الحب .. ستعيش وتموت خاملا إذا أنت لم تعشق ولم تعرف الهوى . ثم كيف تتكلم عن نزعتك الفنية وحبك الفن وأنت بالحب جحود كنود ؟... !

أنا لا أقول لك طلق فكرة الإخراج السينمائي بتاتاً . فاني عندئذ قد أقتل موهبتك الكبرى واستعدادك الفطرى .. إنما أقول لك إنك الآن أمام استحالة مطلقة ، لاسبيل إلى تذليلها ولو إلى حين ...

ففضلا عن ضن الأمريكان بتعليم الأجانب هذا الفن يتعذر عليك العيش في أمريكا إلا بأضعاف ماتظن ثم إن أوروبا كما تعرف مخربة مهجورة ، إلى سنين .. فأنت محكوم عليك بالبقاء في مصر ، بضعة أعوام أخرى ، تبلغ فيها أشدك ، وتكون أكثر رجولة وأقوى إرادة ، و — أملا — للعين . فماذا تفعل ؟.. هل تشقى نفسك وأهلك باهمال درسك ؟ ! .. وتهمله بعد ماقطعت فيه شوطا موفقا طويلا ؟ !

ثم أنت يامن تحب الوحدة والحزن هل تكذب على نفسك أو تكذب على ؟ ! أو أنك خالى الذهن بتاتاً من صناعة الإخراج السينمائي ؟ ! أفلا تعرف أنها صناعة آلية تسخر من الوحدة وتهزأ بالحزن ؟ ! .. أتترك آلات التصوير وآلات الصوت وأجهزة الضوء تعمل عملها بينما أنت سابح في عالم الخيال ، تتنزه في دنيا الأحزان ، أو عاكف تنسج نسيج وحدتك في وحدتك ؟ !

لعل كل هذا التزعزع فى الحكم على اميالك واستعدادك ونفسيتك راجع إلى قلة إيمانك . فلا تزعم ما ليس لك به علم . لاتقل أنا ملحد، أنا كافر !.. (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) .. من أنت حتى تكفر بالله واليوم الآخر ؟.. من أنت فى هذه الدنيا ، ما مكانك من العلم أو المعرفة حتى تعرف وتحكم بأن الله غير موجود ؟ ! إن الله قد أعطاك أباً كريما «يعطف عليك إلى درجة لايتصورها العقل» كما تقول . فأى دليل على رحمة الله بك أكثر من هذا الدليل . هناك ياسيدى ، ويابنى من قد فتحوا أعينهم للحياة فلم يجدوا لهم أباء . ماسلم أحدهم على ولده طفلا حتى ودعه فى المهد صبياً . ومع ذلك لم يكفر ولم يلحد . بل وجد من الإيمان سنداً فى الحياة ودعامة لانظير لها . « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب » !...

ويعود فتقول إنك فى الإخراج السينمائى ، إن لم توفق توفيقاً عظيما فستظل وراء الصفوف ، وتخضع ، رضيت أم كرهت ، لنفوذ الممثلات الجميلات ، وتخضع على رغم أنفك لدسائسهن ، فينلن الأدوار الأولى لا لفنهن ، بل لسواد عيونهن ! !.. وسيبدأ عندئذ ضجيج حياتك ، أنت يامن تحب الهدوء !.. وستعرف يومئذ أن المـــال والجمال يلعبان دوراً خطيراً فى الإخراج السينمائى ، وفى كل إخراج !..

أما بعد ، فلماذا تتنكر كل هذا التنكر لصناعتك ؟ أنت مخطىء فى مقتها كل هذا المقت . تستطيع أن تصبر حتى تظفر بشهادتها فترضى أبا أنت مطالب بارضائه ، وفاء بوفائه . ثم افرض أنك احترفت الصيدلة فماذا عليك؟.. الست تحب الحزن وتخلقه إذا لم تجده؟..

وأى محيط أولى بهذا وأشد انطباقاً عليه من محيط الطب والصيدلة ؟ فأنت محوط باستمرار بنفوس جزعه ، قلقة ، ملهوفة على أحبابها ... نفوس حزينة حتى الموت من خشية الموت ..

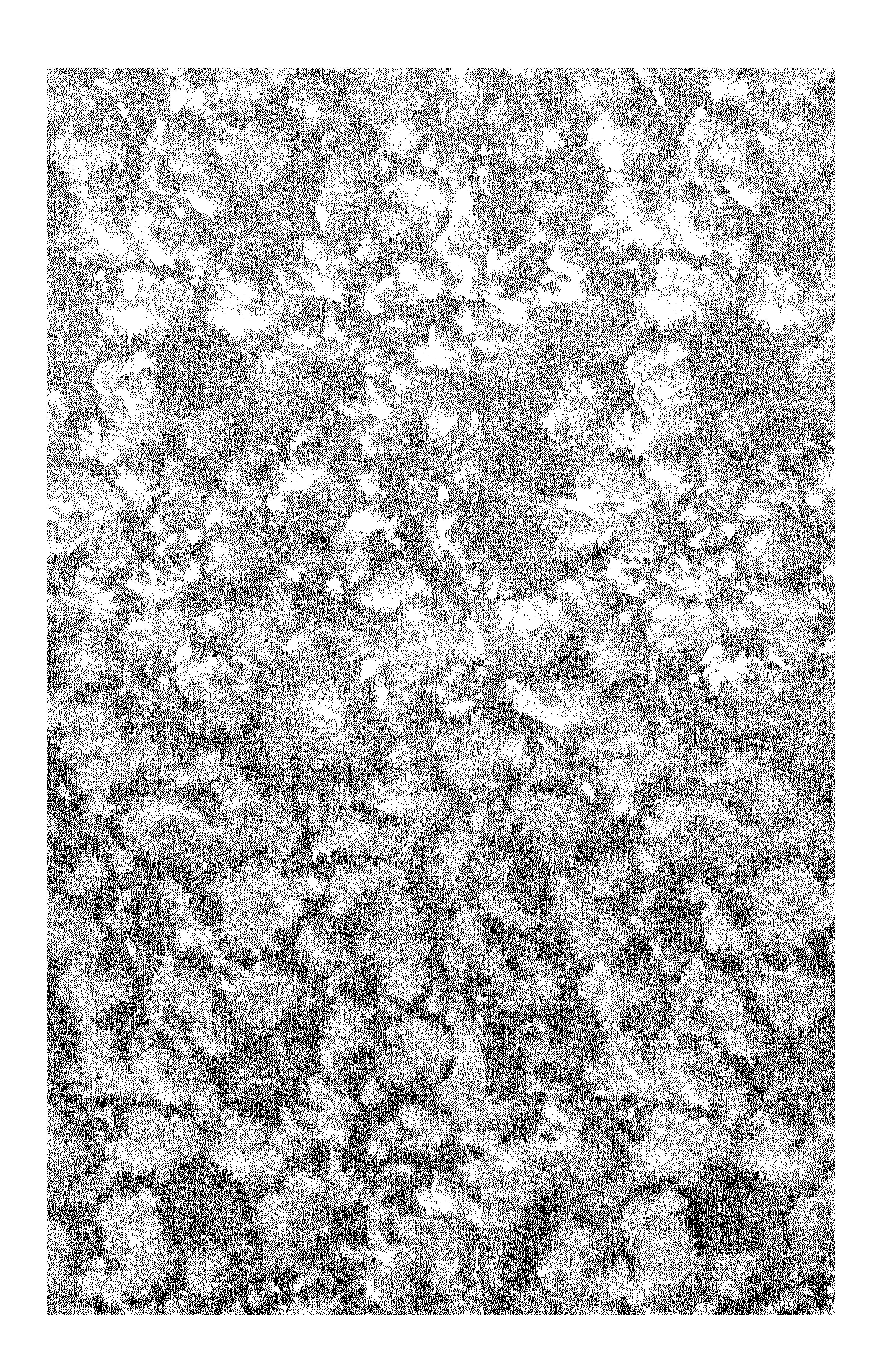
أرجو أن تمر ذات ليلة ، حوالى منتصف الليل ، والصقيع يتساقط على القاهرة ، وقد أقفرت شوارعها ، وانظر فى أجزخانة قريبة ، مفتوحة أنظر فى ظل نورها الضئيل إلى المجموعة الكئيبة ، الواجمة التى تنتظر. تجد فتيات كاسفات البال فى انتظار دواء لأمهاتهن ، وهن المريضات .. وتجد أمهات كابيات يتضرعن إلى الصيدلى ليسعفهن بدواء لأطفالهن .. وهن المريضات .

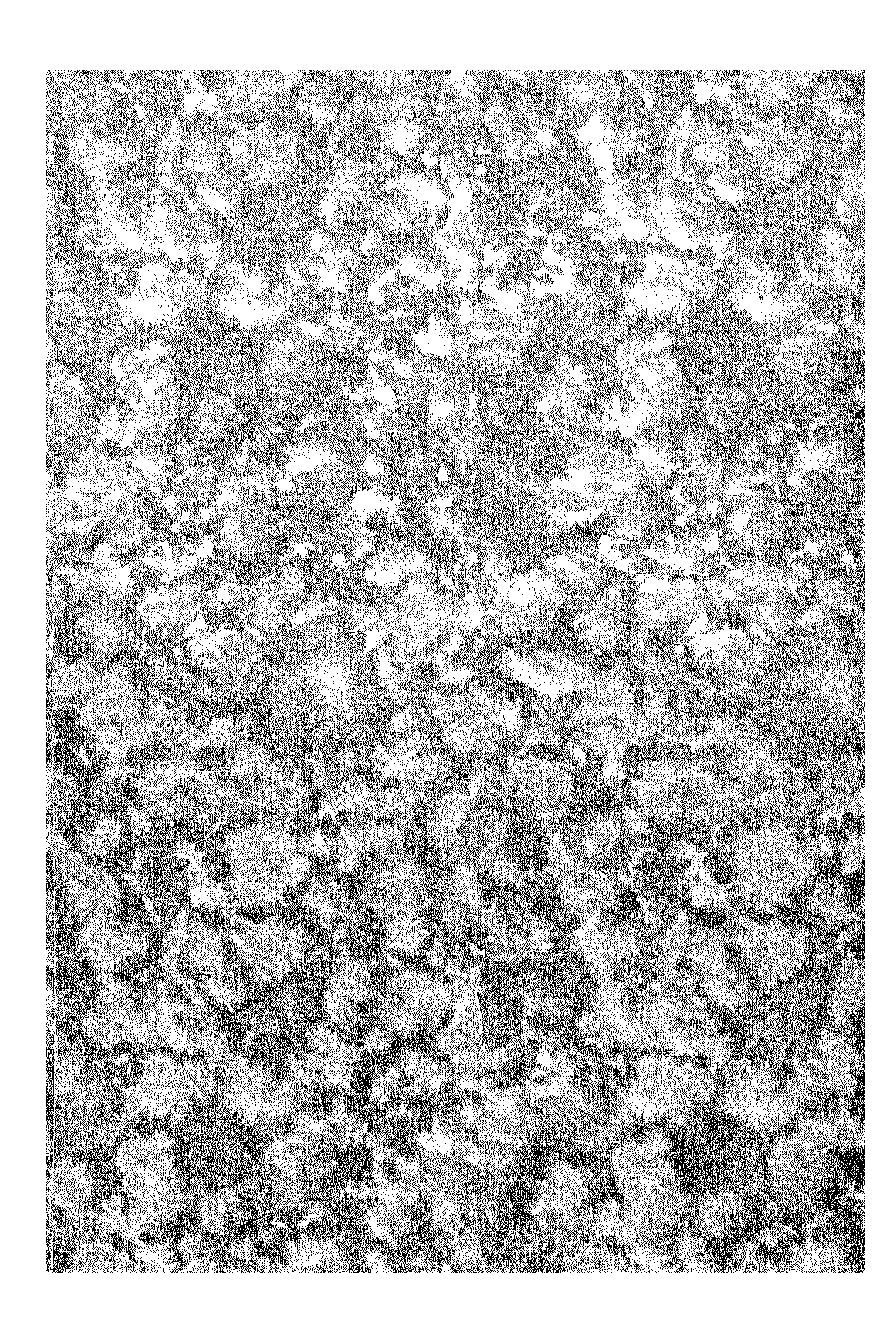
إن العليل هو السليم الذى عنده عليل ... ترى يابنى العيون الذابلة من الأسى ، أنت يامن تحب الأسى ! . ناظرة إلى الزجاجات الصغيرة التى تحضر من عشرات الزجاجات الكبيرة كما ينظر المتعبد المتبتل نحو السماء .. نحو الرحمة .. وعندئذ تعلم أن رسالتك ، رسالة الطبيب ورسالة الصيدلى ، هى تخفيف الحزن ، مع العيش دائماً وسط أطياف الحزن وأشباح الألم ...

ربما زعمت أن هذا من وحى الخيال ، وقد يكون ، لكنه من وحى الفنان . وأنت آمنت برسالة الفن ، وطلبت نصيحته .. فها هى ذى إليك : أن تشفق على أبيك وأهلك ونفسك ، وتتم دراستك حتى تحصل على شهادتك ، ثم تنطلق رجلا حراً كريماً تمارس بها صنعتك فى أى مكان فى العالم ، وتعمل وتدرس إلى جانبها ما تشاء من الفنون ... بدلا من أن تنتحر أو تذكر على لسانك الانتحار ، فهيهات أن ينجح امرؤ فى الحيـــاة إلا إذا كان فنه الأول وفنه الأعلى هو : فن الرجولة.

فهـــرس

مطبعة كوستا تسوماس وشركاه






Bibliotheca Alexandrina
03555372